

تفسير المرائع

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المرائع

أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية

بكلية دارالعلوم سابقاً

الجزء الثامن عشر

الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م

حقوق الطبع محفوظة

الجزء الثامن عشر

سورة المؤمنون

هي مكية وقد نزلت بعد سورة الأنبياء ، وعدد آياتها ثمانى عشرة ومائة .
وقد روى أن بعض الصحابة قالوا لعائشة : كيف كان خلق رسول الله ؟ قالت :
كان خلقه القرآن ، ثم قرأت : « قد أفلح المؤمنون - حتى انتهت إلى - والذين هم
على صلواتهم يحافظون » هكذا كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم .
ووجه المناسبة بينها وبين ما قبلها من وجوه :

(١) إنه تعالى ختم السورة السابقة بخطاب المؤمنين وأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء
الزكاة وفعل الخيرات لعلهم يفلحون - وحقق فلاحهم في بدء هذه السورة .
(٢) إنه تكلم في كل من السورتين في النشأة الأولى وجعل ذلك دليلا على
البعث والنشور .

(٣) إن في كل من السورتين قصصا للأنبياء الماضين وأممهم وقد ذكره
عبرة للحاضرين .

(٤) إنه نصب في كل منهما أدلة على وجود الخالق ووحدانيته .

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ
عَنِ اللّٰغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ
لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ
غَيْرُ مُلْومِينَ (٦) فَمَنْ ابْتغىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ
هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩)
أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١)

شرح المفردات

الفلاح : الظفر بالمراد ، وأفلاح : دخل في الفلاح ؛ كأبشر دخل في البشارة ،
والمؤمن : هو المصدق بما جاء عن ربه على لسان نبيه من التوحيد والنبوة والبعث
والجزاء ، والخاشع : هو الخاضع المتذلل مع خوف وسكون للجوارح ، واللغو : هجر القول
وقبيحه ، والزكاة : تزكية النفس وطهارتها بفعل العبادة المالية . والفرج : سوءة
الرجل والمرأة ، وحفظه : التعفف عن الحرام ، وابتغى : طلب ، وراء ذلك : أى غير
ذلك ، والعادون : أى المتناهون في العدوان ومجاورة الحدود الشرعية ، والأمانات :
واحد أمانة ، وهى ما أتمن المرء عليه من قبل الله كالتكليف الشرعية ، أو من قبل
الناس كالأموال المودعة لديه والنذور والعقود ونحوها ، والعهد : ما عقده الإنسان على
نفسه مما يقربه إلى ربه ، وما أمر به الله كما قال : « الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدَ إِلَيْنَا »
والرعى : الحفظ . والرعى : القائم على الشيء لحفظه وإصلاحه ، يحافظون : أى
يوظفون عليها ، والفرديوس : أعلى الجنة .

الإيضاح

حكّم الله سبحانه بالفلاح لمن كان جامعاً لخصال سبع من خصال الخير :
 (١) الإيمان (قد أفلح المؤمنون) أى فاز وسعد المصدقون بالله ورسوله
 واليوم الآخر .

(٢) الخشوع فى الصلاة (الذين هم فى صلاتهم خاشعون) أى الذين هم محتشون
 لله أذلاء منقادون له خائفون من عذابه ، روى الحاكم أن النبى صلى الله عليه وسلم
 كان يصلى رافعا بصره إلى السماء ، فلما نزلت هذه الآية رمى ببصره إلى نحو مسجده
 أى موضع سجوده ، والخشوع واجب على المرء فى الصلاة لوجوه :

(أ) للتدبر فيما يقرأ كما قال : « أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآءَ »
 والتدبر لا يكون بدون الوقوف على المعنى كما قال : « وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً » أى
 لتقف على عجائب أسرارهِ وبديع حكمهِ وأحكامهِ .

(ب) لتذكر الله والخوف من وعيده كما قال : « أَقِمِ الصَّلَاةَ لِنَذْرِكْرِى » .
 (ح) إن المصلى يناجى ربه ، والكلام مع الغفلة ليس بمناجاة البتة ، ومن ثم
 قالوا : صلاة بلا خشوع جسد بلا روح ، وجهور العلماء على أن الخشوع ليس شرطاً
 للخروج من عهدة التكليف وأداء الواجب ، وإنما هو شرط لحصول الثواب عند الله
 وبلوغ رضوانه .

(٣) الإعراض عن اللغو (والذين هم عن اللغو معرضون) أى والذين يعرضون
 عن كل ما لا يعينهم وعن كل كلام ساقط حقه أن يُبلغى كالكذب والهزل والسب ،
 إذ لهؤلاء من الجلد ما يشغلهم ، فهم فى صلاتهم معرضون عن كل شئ إلا عن
 خالقهم ، وفى خارجها معرضون عن كل ما لا فائدة فيه ، فهم متجهون للجد وصالح
 العمل ، فهم قد استفادوا من خشوع الصلاة درساً انتفعوا منه بعدها ، وتخلقوا بأخلاق
 النبيين والصدّيقين .

(٤) تطهيرهم لأنفسهم بأداء الزكاة (والذين هم للزكاة فاعلون) أى والذين هم لأجل طهارة أنفسهم وتزكيتها يؤدون المفروض للفقير والمساكين كما قال : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا » وقال : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى » .

(٥) حفظ الفرج (والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين) أى والذين يحفظون فروجهم فى كافة الأحوال إلا فى حال تزوجهم أو تسريهم (قربان الأمة بالملك) فإنهم حينئذ يكونون غير ملومين ، والمراد بهذا الوصف مدحهم بنهاية العفة والإعراض عن الشهوات .

(فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) أى فمن طلب غير أربع من الحرائر وما شاء من الإماء فأولئك هم المتناهون فى العدوان والتعدون لحدود الله .

(٦) رعاية الأمانة والعهد (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) أى والذين إذا أتمنوا لم يخونوا بل يؤدون الأمانة لأهلها ، وإذا عاهدوا أو عقادوا أو قوا بما عاهدوا عليه ، إذ الخيانة وخاف العهد من صفات المنافقين كما جاء فى الحديث : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أتمن خان » .

وقصارى ذلك — إنهم يؤدون ما أتمنوا وعاهدوا عليه من الرب أو العبد كالتكاليف الشرعية والأموال المودعة والعقود التى عقادوا الناس عليها .

(٧) المحافظة على الصلوات (والذين هم على صلواتهم يحافظون) أى والذين يواظبون عليها على أكمل وجه فى الأوقات التى رسمها الدين ، روى عن ابن مسعود أنه قال : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله : أى العمل أحب إلى الله ؟ قال : الصلاة على وقتها ، قلت ثم أى ؟ قال برّ الدين ، قلت ثم أى ؟ قال الجهاد فى سبيل الله » رواه الشيخان .

وقد افتتح سبحانه هذه الصفات الحميدة بالصلاة واختتمها بالصلاة ، دلالة على عظيم فضلها ، وكبير مياقبها ، وقد ورد فى الحديث : « اعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن » .

ولما كان الجزاء فى الآخرة نتيجة للعمل فى الدنيا ، وما فيها من نعم حصاذاً
لما زرع فيها ، رتب على ذلك قوله :

(أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) أى أولئك
المؤمنون الذين تحلوا بتلك الخلال السامية جديرون بأن يقبوا وأرفع مراتب الجنات
كيفاء ما زينوا به أنفسهم من الأخلاق الفاضلة ، والآداب العالية ، ويبقون خالدين
فيها أبداً لا يخرجون منها ولا يموتون .

وقصارى ماسلف — إن فلاح المؤمن موقوف على اتصافه بتلك الصفات
السامية العالية القدر ، العظيمة الأثر فى حياته الروحية ، وكالاته النفسية ، روى عن
عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا
نزل عليه الوحي يسمع عند وجهه دوى كدوى النحل ، فأنزل عليه يوماً فكسك
ساعة ثم سرى عنه فاستقبل القبلة فقال : اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا
وأعظنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا وأرضنا وارض عنا ، ثم قال لقد أنزل على
عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ثم قرأ : قد أفلح المؤمنون حتى ختم العشر » .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً
فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ، فَخَلَقْنَا
الْمُضْغَةَ عِظَامًا ، فَكَسَّوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ، ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ،
فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيْتُونَ (١٥) ثُمَّ
إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) .

شرح المفردات

السلالة : ماسل من الشيء واستخرج منه ، وتارة تكون مقصودة كخلاصات
الأشياء كالزبد من اللبن ، وتارة تكون غير مقصودة كقلامة الظفر وكناسة البيت

وقرار : أى مستقر ، مكين : أى متمكن ، والعلقة : الدم الجامد ، والمضغة : قطعة اللحم قدر ما يمضغ ، تبارك الله : أى تعالى وتقدس .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أحوال السعداء المفلحين - ففى على ذلك بذكر مبدئهم ومآل أمرهم وأمر غيرهم من بنى الإنسان ، وفى هذا إعظام للمنة وحث على الاتصاف بحميد الصفات وتحمل مثونة التكاليف ، ثم ذكر أن كل ذلك منتهى إلى غاية هى يوم القيامة الذى تبعثون وتحاسبون فيه على أعمالكم إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

الإيضاح

(ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) أى ولقد خلقنا أصل هذا النوع وأول أفرادها ، وهو آدم عليه السلام من صفوة طين لا كدر فيه .

ويرى جماعة من المفسرين : أن المراد بالإنسان هنا ولد آدم وهم يقولون : إن النطف تتوالد من الدم الحادث من الأغذية وهى إما حيوانية وإما نباتية ، والحيوانية تنتهى إلى نباتية ، والنبات يتوالد من صفو الأرض والماء ، فالإنسان على الحقيقة متوالد من سلالة من طين ، ثم تواردت على تلك السلالات أطوار الخلق إلى أن صارت نطفة . (ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين) أى ثم جعلنا نسله نطفة فى أصلاب الآباء ، ثم قدفت إلى الأرحام فصارت فى حرز حصين من وقت الحمل إلى حين الولادة .

ونحو الآية قوله : « أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ نَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ » .

(ثم خلقنا النطفة علقة) أى ثم حولنا النطفة من صفحتها الثانية إلى صفة العلقة

وهى الدم الجامد .

(فخلقنا العلقة مضغة) أى ثم جعلنا ذلك الدم الجامد مضغة أى قطعة لحم

بتقدير ما يمضغ .

(فخلقنا المضغة عظاما) أى فصيرناها كذلك ، وميزنا بين أجزائها ، فما كان منها من العناصر الداخلة فى تكوين العظام جعلناه عظاما ، وما كان من مواد اللحم جعلناه لحما ، والمواد الغذائية شاملة لذلك ومنبثثة فى الدم ، ومن ثم قال :
(فكسونا العظام لحما) وقد جعل اللحم كسوة لها ، من قبل أنه يستر العظام فأشبهه بالكسوة الساترة للجسم .

(ثم أنشأناه خلقا آخر) مبينا للخلق الأول ، إذ نفخنا فيه الروح وجعلناه حيوانا بعد ما كان أشبه بالجماد ، ناطقا سميما بصيرا وأودعنا فيه من الغرائب ظاهرها وباطنها ما لا يحصى .

وقد قال العلماء : إن جميع أعضاء الإنسان مقسمة تقسيما دقيقا على نسب معينة مقيسة بشبره ، فطوله ثمانية أشبار بشبره ، وإذا مد يديه إلى أعلى كان عشرة أشبار بقياسه ، وإذا مد يديه إلى الجانبين كان طولها كطوله على السواء ، ومن ثم جعل المصريون أصل المقاييس الشبر ، وجعلوا كل ضلع من أضلاع الهرم الأكبر بالجيزة ألف شبر بشبر الإنسان .

(فتبارك الله أحسن الخالقين) أى فتنزه ربنا جلت قدرته ، وهو أحسن المقدرين المصورين .

عن أنس قال : قال عمر « وافقت ربي فى أربع ، قلت يا رسول الله لو صلينا خلف المقام فأنزل الله « وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مَصَلًى » وقالت يا رسول الله لو اتخذت على نسائك حجبا فإنه يدخل عليك البر والفاجر فأنزل الله « وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ » وقلت لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم لئنتمن أو لبيدله الله أزواجا خيرا منكن فنزلت « عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ » الآية ونزلت « وَاتَّقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ - إلى قوله ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ، فقلت فتبارك الله أحسن الخالقين » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هكذا أنزلت يا عمر أخرجته الطيالسى .

(ثم إنكم بعد ذلك لميتون) أى ثم إنكم بعد النشأة الأولى من العدم تصيرون إلى الموت .

(ثم إنكم يوم القيامة تبعثون) من قبوركم للحساب ثم المجازاة بالشواب والعقاب ، إذ يوفى كل عامل جزاء عمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر .

وخلاصة ما تقدم — إنه تعالى بعد أن ذكر أنه كلف عباده بما كلف — بين أن هذه التكليف شكر من الإنسان لربه الذى أنشأه النشأة الأولى وقلبه فى أطوار مختلفة حتى أوصله إلى طور هو غاية كماله فأصبح قادرا على تكليفه بتلك التكليف ، ولا بد له من طور يستحق فيه الجزاء على ما كلف به وهو طور البعث بعد الموت يوم القيامة .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَرَقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧)

شرح المفردات

الطرائق : السموات واحدها طريقة أى مطروق بعضها فوق بعض ؛ من قولهم طارق بين ثوبين : إذا لبس ثوبا فوق ثوب ، قال الخليل والزجاج : وهذا كقوله « أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طَبَاقًا » وقوله : « اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِيَتَّعَمَّنَّ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا » واخلق : أى الخلقوات التى منها السموات السبع ، غافلين : أى مهملين أمرها كما قال : « يَغْلُمُ مَا يَدْرَجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه خلق الإنسان فى أطواره المختلفة واستدل بذلك على قدرته وتفرد بالتصرف فى الملك والملكوت - أردفه ببيان ما يحتاج إليه فى بقائه لما فيه من المنافع التى لاغنى له عنها .

الإيضاح

(ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق) أى ولقد خلقنا فوقكم سبع سموات بعضها فوق بعض وهى أيضا طرق الكواكب المعروفة عند البشر قديما ، وهناك طرائق أخرى عرفها الناس حديثا :

(وما كنا عن الخلق غافلين) أى وما كنا عن المخلوقات - سواء كانت هذه الطرائق أو غيرها - غافلين عن أمرها ، إذ تسير الكواكب فى تلك الطرائق بحساب منتظم ، ولو أهملناها لاختل توازنها وسار كل كوكب فى غير مداره أو زل نجم عن سنن سيره ، ففسد النظام العام للعالم العلوى والعالم الأرضى .

والخلاصة - إنا خلقنا السموات لمنافعهم ، ولسنا غافلين عن مصالحهم ، بل نفيض عليهم ما تقتضيه الحكمة ، فحقها دال على كمال قدرتنا ، وتدبير أمرها دال على كمال علمنا .

وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ (١٨) فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ تَحْتِهَا وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهٌ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْأَكْلِينَ (٢٠) .

شرح المفردات

السماء : هنا السحاب ، بقدر : أى بتقدير خاص وهو مقدار كفايتهم ، فأسكناه فى الأرض : أى جعلناه ثابتا قارا فيها ، والذهاب : الإزالة إما بإخراجه من المائية أو بتفويده فى الأرض بحيث لا يمكن استخراجه ، والشجرة : هى الزيتون ، وطور سيناء : هو جبل الطور الذى ناجى فيه موسى ربه ويسمى طور سينين أيضا ، والصبغ : ما يصبغ فيه الخبز أى يغمس فيه للالتصاق ، قال فى المغرب : يقال صبغ الثوب بصبغ حسن وصباغ حسن ، ومنه الصَّبغ والصباغ من الإدغام لأن الخبز يغمس فيه ويلوّن به كالخل والزيت .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن من دلائل قدرته خلق الطرائق السبع - قفى على ذلك ببيان ما فيها من منافع للإنسان ، فمنها ينزل الماء الذى به تنشأ الجنات من النخيل والأعناب وكثير من أشجار الفاكهة التى تؤكل ، وينبت به شجر الزيتون الذى يؤخذ من ثمره الزيت الذى يتخذ دهنا للأجسام ، وإدما فى الطعام .

الإيضاح

(وأُنزَلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض) أى وأُنزَلنا من السحاب مطرا بقدر الحاجة ، لاهو بالكثير فيفسد الأرض ، ولا هو بالقليل فلا يكفى الزرع والثمار ، حتى إن الأرضين التى تحتاج إلى ماء كثير لزرعها ولا تتحمل تربتها إنزال المطر عليها يساق إليها الماء من بلاد أخرى كما فى أرض مصر ، ويقال مثلها (الأرض الجرز) فيساق إليها ماء النيل حاملا معه الطين الأحمر (الغرين) يحترقه من بلاد الحبشة فى زمن الأمطار فيستقر فيها ويكون سمادا لها ونافعا لزرعها .
وبعض هذا الماء يسكن فى الأرض فيتغذى به ما فيها من الحب والنوى ، ومنه

تتكون الآبار والعيون التي تمر على معادن مختلفة، فتتشكل بأشكالها وتتصف بصفاتها فيكون ماؤها حاويا إما للنوشادر وإما للكبريت وإما للأملاح وهكذا .

(وإنا على ذهاب به لقادرون) أى وإنا على ذهابه وإزالته لقادرون بحيث يتعذر استخراجها ، كما كنا قادرين على إزاله ، ولو شئنا ألا يطر السحاب لقلنا ، ولو شئنا لصرفناه عنكم إلى جهات أخرى لاستفيد منه كالأرضين السبخة والصحارى ، ولو شئنا لجعلناه إذا نزل فى الأرض يغور فيها إلى مدى بعيد لاتصلون إليه ولا تنتفعون به ، ولكن بطفنا ورحمتنا نزل عليكم الماء العذب الفرات ونسكنه فى الأرض ونسلكه ينابيع فيها لتسقوا به الزرع والثمار وتشربوا منه أتم ودوابكم وأنعامكم .

(فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب) أى فأخرجنا لكم بما أنزلنا من السماء بساتين فيها نخيل وأعناب .

(لكم فيها فواكه كثيرة) أى لكم فى الجنات فواكه كثيرة تتمتعون بها زيادة على ثمرات النخيل والأعناب .

(ومنها تأكلون) أى ومن زروع الجنات وثمارها ترزقون وتحصلون معاشكم ، كما يقال فلان يأكل من حرفة يحترفها ، ومن تجارة يترجح بها أى إنها طعمته وجهته التى منها يحصل رزقه .

(وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين) أى وأنشأنا لكم شجرة الزيتون التى تنبت فى هذا الجبل بتلك البقعة المباركة وثمر زيتونا تصنع منه الزيوت التى يدهن بها وتتخذ إداما للآكلين .

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكرنا سبحانه بنعمة إنزال الماء من السماء الذى ينبت به جنات النخيل والأعناب والقواكه المختلفة والزيتون - أردفها بذكر النعم المختلفة التى سخرها لنا من خلق الحيوان .

الإيضاح

(وإن لكم فى الأنعام لعبرة) أى إن فى خلق الأنعام لعبرة فضلا عن كونها نعمة ، ووجه العبرة فيها أن الدم المتوالد من الأغذية يتحول فى الغدد التى فى الضرع إلى شراب طيب للذيذ الطعم صالح للتغذية ، وهذا من أظهر الدلائل على قدرة الخالق لها . ثم فصل منافعها وذكر منها أربعة فقال :

(١) (نسقيكم بما فى بطونها) فتنتفعون بألبانها على ضروب شتى ، فتتخذون

منها القشدة والسمن والجبن ونحوها .

(٢) (ولكم فيها منافع كثيرة) فتأخذون أصوافها وأشعارها وأوبارها ،

وتتخذونها ملابس وفرشا للدفء وبيوتا فى الصحارى ونحوها مما يجرى هذا الجرى .

(٣) (ومنها تأكلون) أى وتأكلون منها بعد ذبحها ، فكما انتفعت بها وهى

حية تنتفعون بها بعد الذبح بالأكل .

(٤) (وعليها وعلى الفلك تحملون) أى وتركبون ظهورها وتحملونها الأحمال

للثقيلة إلى البلاد النائية كما قال فى آية أخرى : « وَتَحْمِلُ أَمْثَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ

لَمْ تَكُونُوا بِالْغَيْبِ إِلَّا يَشِقُّ الْأَنْفُسِ » وقال : « أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا

عَمَلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ . وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا

يَأْكُلُونَ . وَ لَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ؟ » .

وقصارى ذلك - إن فى خلق الأنعام عبرا ونعما من وجوه شتى ، فميه دلائل

على قدرة الخالق بخلق الألبان من مصادر هي أبعد ما تكون منها - ونعمالنا في مراقبتها وأعيانها ، فننتفع بألبانها وأصوافها ولحومها ونجملها مطايا لنا في أسفارنا إلى نحو أولئك من شتى المنافع .

قصة نوح عليه السلام

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، أَفَلَا تَتَّقُونَ ؟ (٢٣) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ : مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً ، مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ فَنَتَّبِعُوهَا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلَکَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا ، فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَاطِنٍ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ، وَلَا نُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ (٢٧) فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْکِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٨) وَقُلْ رَبِّ أُنزِلْنِي مُنْزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٢٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠) .

شرح المفردات

الملا : أشرف القوم ، يفضّل : أى يدعى الفضل والسيادة ، جنة : أى جنون ، فتر بصوا : أى انتظروا ، بأعيننا : أى بحفظنا ورعايتنا ، وفار : نبع ، والتنور : وجه

الأرض ، استويت : أى علوت ، لايات : أى عبراء ، لمبتلين : أى لمتحبرين ممتحنين لهم : أى لمعاملتهم معاملة من يختبر .

المعنى الجملى

بعد أن عدّد سبحانه ما أنعم به على عباده فى نشأتهم الأولى وفى خلق الماء لهم لينتفعوا به ، وفى خلق الحيوان كذلك - ذكر هنا أن كثيرا من الأمم قد أهلوا التدبر والاعتبار فى هذا ، فكفروا بهذه النعم وجعلوا قدر النعم بها وعبدوا غيره ، وكذبوا رسله الذين أرسلوا إليهم فخاق بهم ما كانوا به يستهزئون ، وأهلكهم الله بعذاب من عنده فأصبحوا كأمس الدابر ، والمثل السائر ، وفى هذا تخويف لقريش وإنذار لهم على ما يفعلون ، وأنه سيحل بهم ما داموا على تكذيب رسولهم والكفر به مثل ما حل بمن قبلهم .

الإيضاح

(ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالم يكن من إله غيره) أى ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه منذرا لهم عذاب الله وشديد بأسه وانتقامه على إشرارهم به وتكذيب رسوله ، فقال لهم متعظفا عليهم مستميلا لهم لقبول الحق : يا قوم اعبدوا الله وحده وأطيعوه ولا تشركوا معه ربا سواه ، فإنه لا رب لكم غيره ولا معبود سواه .

(أفلا تتقون ؟) أى أفلا تخشون عقاب الله فتحذروا أن تعبدوا معه سواه ؟ .
 (فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم) أى فقال أشرف قومه ورؤسائهم من العريقين فى الكفر ومن ذوى الكلمة المسموعة والرأى المطاع : ما نوح إلا رجل منكم ليس له ميزة عليكم فى فضل ولا خلق فيكون أهلا للنبوة وتلقى الوحي من ربه ، وما هو إلا رجل يريد أن يسودكم ويكون

ويكون له الصَّوْلَةُ والسلطان عليكم ، وقد ادعى الرسالة ليصل إلى ما تصبو إليه نفسه وليس له من حقيقتها شيء .

وبعد أن بينوا أن لامقتضى لاختصاصه بالنبوة ذكروا الموانع التي تحول بينه وبينها فذكروا أموراً ثلاثة :

(١) (ولو شاء الله لأُنزل ملائكة) أى ولو شاء الله ألا نعبد سواه لأرسل بالداء إلى ما يدعوكم إليه نوح ملائكة تؤدى إليكم رسالته .

(٢) (ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين) أى ما سمعنا فى القرون الغابرة عهود الآباء والأجداد بمثل هذا الذى يدعو إليه نوح من أنه لا إله إلا إله واحد لا ربّ غيره ولا معبود سواه .

وفى هذا إيماء إلى أنهم قوم لا رأى لهم ، وإنما يعولون على التقليد وقول الآباء والأجداد ، فلما لم يجدوا عن آبائهم شيئاً مثل هذا أنكروا نبوته ، وفيه إشارة أيضاً إلى أنهم قد بلغوا الغاية فى العناد والتكذيب والانهماك فى الغى والضلال .

(٣) (إن هو إلا رجل به جنّة) أى وما نوح إلا رجل به خبيل فى عقله ، فزاعمه لا تصدر إلا من رجل لا يزن قوله ، ولا يدعم رأيه بالحجة الناصحة ، فلا يلتفت إذاً إلى ما يدعى ، ولا ينبغى أن نضيع الوقت فى محاجته ، ودحض مزاعمه ، فى صدق دعوته .

وبعد أن ذكروا موانع نبوته ذكروا الطريقة المثلى فى إبطال دعوته فقالوا :

(فتربصوا به حتى حين) أى فقلبشوا وانتظروا العله يضيّق مما هو فيه فيعود سيرته الأولى ويرجع من تلقاء نفسه إلى دينكم ودين آبائكم وأجدادكم .

وهذا من مكابراتهم لفرط عنادهم إذ هم يعلمون أنه أرجح الناس عقلاً وأرزنهم قولاً .

ولم يردّ سبحانه على هذه الشبه لسخافتها ووضوح فسادها ، إذ كل عاقل يعلم أن الرسول يميز من غيره بالمعجزات التي تأتي على يديه سواء أكان ملكاً أم بشراً ،

وإرادته التفضل عليهم إن كانت لأجل أن يستبين فضله حتى ينفقوا له فلا ضير في ذلك بل هو واجب ، وإن أرادوا أنه ينبغي التجبر عليهم فالأنبياء منزهون عن ذلك ، وقولهم : ما سمعنا بهذا في آياتنا الأولين ، اعتناق للتقليد وهو لا يصلح حجة تدفع بها حجج المعارضين الواضحة وضوح الشمس في رابعة النهار ، وقولهم : به جنة كذب صراح ، لأنهم يعلمون ذكَّنه وعظيم فطنته وما أوتيته من أصالة الرأي وثاقب الفكر . ولما استبان لنوح إصرارهم على ضلالهم وتماديهم في غيهم وبأسه من إيمانهم وأوحى إليه أنه إن يؤمن من قومك إلا من قد آمن - طلب إلى ربه أن ينصره عليهم :

(قال رب انصرني بما كذبون) أى قال رب انصرني بإنجاز ما أوعدتهم به من العذاب بقولى « إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ » .
ونحو الآية قوله : « فِدَاعاً رَبِّهِ أَيْ مَعْلُوبٌ فَأَنْتَصِرُ » وقوله : « رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا » .
وقد أجاب الله دعاءه فقال :

(فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا) أى فقلنا له حين استنصرنا على كفره قومه : اصنع السفينة بحفظنا وراعيتنا لك من التعدى عليك وتعلمينا إياك كيفية صنعها .

(فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم) أى فإذا جاء قضاؤنا في قومك بعذابهم وهلاكهم ونبع الماء من وجه الأرض - فأدخل فيها من كل طائفة من الحيوان فردين مزدوجين كنفقة وجل وحصان ورممكة ، وأدخل ولدك ونساءهم إلا من سبق عليه القول من الله بأنه هالك فيمن يهلك فلا تحمله معك وهو كنعان وأمه .

(ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون) أى ولا تسألني أن أنجي الذين كفروا بالله من الغرق . فإن كلمتي قد حقت عليهم أجمعين .

ثم أمره بحمده والثناء عليه إذا هو استوى على الفلك فقال :
 (فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم
 الظالمين) أى فإذا اطأنت فى السفينة أنت ومن معك ممن حملته من أهلك ،
 فقل الحمد لله الذى نجانا من هؤلاء المشركين الظلمة .

وفى هذا إيماء إلى أنه لا ينبغى المسرة بمصيبة أحد ولو عدواً إلا إذا اشتملت
 على دفع ضرره أو تطهير الأرض من دنس شركه وإضلاله .

قال ابن عباس : كان فى السفينة ثمانون إنساناً نوح وامراته غير التى غرقت
 وثلاثة بنين سام وحام ويافت وثلاث نسوة لهم واثنان وسبعون إنساناً ، وكل
 الخلائق من نسل من كان فى السفينة .

ثم أمر نوح أن يدعو ربه حين خروجه من السفينة .

(وقل رب أنزلنى منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين) أى وقل إذا سلمت
 وخرجت من السفينة : رب أنزلنى من الأرض منزلاً مباركاً وأنت خير من أنزل
 عباده المنازل .

قال قتادة : علمكم الله أن تقولوا حين ركوب السفينة : « بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا
 وَمُرْسَاهَا » وحين ركوب الدابة : « سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ
 مُقْرِنِينَ » وحين النزول : « وَقُلْ رَبِّ انزِلْنى مُنزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين » .

(إن فى ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين) أى إن فيما فعلنا بقوم نوح من
 إهلاكهم إذ كذبوا رسولنا ووجدوا وحدانيتنا وعبدوا الآلهة والأصنام - لعبرا لقومك
 من مشركى قريش ، وحججنا لنا عليهم يستدلون بها على سنننا فى أمثالهم فينجزرون
 عن كفرهم ، ويرتدون عن تكذيبهم حذر أن يضييهم مثل الذى أصاب من قبلهم
 من العذاب ، وقد كنا مُحْتَبِرِيهِمْ بالْبَيْدِ كَبِيرِ هَذِهِ الْآيَاتِ لِنَنْظُرَ مَاذَا يَفْعَلُونَ قَبْلَ أَنْ
 نَنْزِلَ بِهِمْ عِقَابَنَا .

ونحو الآية قوله : « وَاتَّقُوا تَرَكَانَهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ » وقد تقدم هذا القصص بتفصيل في سورة هود عليه السلام .

قصة هود عليه السلام

ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخِرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، أَفَلَا تَتَّقُونَ ؟ (٣٢) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا : مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَسْنَا أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ (٣٤) أَيْدِيكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ عُثَاءً ، فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١) .

شرح المفردات

القرن : الأمة ، والمراد بهم عاد قوم هود لقوله تعالى في سورة الأعراف : « وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ » أتْرَفْنَاهُمْ : أى وسعنا عليهم وجعلناهم فى ترف ونعيم ، لخاسرون : أى لمغبونون فى آرائكم إذ أنكم أذلتهم أنفسكم

لعبادة من هو دونكم ، هيئات : أى بعد ، ما توعدون : هو البعث والحساب ،
بمؤمنين : أى بمصدقين ، عما قليل : أى بعد زمان قليل ، ليصبحن : أى ليصيرن ،
والصيحة : العذاب الشديد كما قال :

صاح الزمان بأل برمك صيحة خرّوا لشدتها على الأذقان
والغشاء : ما يحمله السيل من الورق والعيدان البالية التي لا ينتفع بها ، بعدا :
أى هلاكا .

الإيضاح

(ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين . فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله
مالكم من إله غيره ، أفلا تتقون ؟) أى ثم أوجدنا من بعد مهلك قوم نوح قوما
آخرين وهم عاد فأرسلنا فيهم رسولا منهم ، وهو هود عليه السلام داعيا لهم قائلا :
يا قوم اعبدوا الله وأطيعوه دون الأوثان والأصنام ، فإن العبادة لا تنبغى إلا له
ولا تصلح لسواه ، أفلا تخافون عقابه بعبادتكم غيره من وثن أو صنم ؟ .

(قال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفاهم في الحياة الدنيا
ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون) أى وقال
أشراف قومه الذين جحدوا وحادانية الله وكذبوا بالبعث والحساب ، وقد وسعنا
عليهم في الحياة الدنيا بما بسطنا لهم من الرزق حتى بطروا وعتوا وكفروا بربهم :
ما هود إلا بشر مثلكم لا ميزة له عنكم ، فهو يأكل مما تأكلون ويشرب مما تشربون ،
ومرادهم بذلك توهين أمره وتحقير شأنه .

(ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون) أى ولئن أطعتم بشرا مثلكم
فاتبعتموه وقبلتم ما يقول : إنكم إذا لغبونون حظوظكم من الشرف والرفعة في الدنيا .
ثم بينوا سبب إنكارهم لاتباعه واستبعادهم وقوع ما يدعيه بقولهم :

(أيعدمكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون) أى أيعدمكم أنكم مخرجون من قبوركم أحياء كما كنتم أولا إذا متم وكنتم ترابا فى القبور بعد أن تذهب لحومكم وتبقى عظامكم .

(هيهات هيهات لما توقعدون) أى بعيد ما توقعدون أيها القوم من أنكم بعد موتكم ومصيركم ترابا وعظاما تخرجون من قبوركم للبعث والحساب ثم الجزاء على ما تعملون .

ثم أكدوا هذا الإنكار بقولهم :

(إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين) أى ما حياة إلا هذه الحياة فى الدنيا ، تموت الأحياء منا فلا تحيا ، ويحدث آخرون منا ويولدون ، وما نحن بمبعوثين بعد الموت ، إنما مثلنا مثل الزرع يحصد هذا وينبت ذلك .

والخلاصة — إنه يموت منا من هو موجود وينشأ آخرون بعدهم .

وبعد أن كان أمرهم معه مقصورا على الاستبعاد فحسب ، جاهرُوا بتكذيبه فيما يدعى فقالوا :

(إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين) أى ما هود إلا رجل يخلق الكذب على الله ، فتارة يقول : مالكم من إله غير الله خالق السموات والأرض ، وأخرى يقول : إنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما إنكم مخرجون ، وما نحن بمصدقيه فيما يدعى ويزعم من التوحيد والبعث .

ولما يأس هود من إيمانهم بعد ذكر هذه المقالة « وما نحن له بمؤمنين » فزع إلى ربه .

(قال رب انصرنى بما كذبون) أى قال بعد أن يأس من إيمانهم وقد سلك فى دعوتهم كل مسلك ، متضرعا إلى ربه : رب انصرنى عليهم وانتقم لى منهم بتكذيبهم إياى فيما دعوتهم إليه من الحق وإصرارهم على الباطل . فأجابه ربه إلى ما سأل .

(قال عما قليل ليصبحن نادمين) أى قال تعالى مجيبا دعاءه : ليصيرنَّ
مكذوبك بعد زمن قليل نادمين على ما فعلوا ، وستحل بهم نعمتنا ولا ينفعهم
الندم حينئذ .

ثم أخير أنه أنجز وعيده فيهم فقال :

(فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غناء) أى فسلطنا عليهم نعمتنا فأخذهم
العذاب الذى لا قبل لهم به ، وقد كانوا مثلثة مستحقين ، بسبب كفرهم وتكذيبهم
رسوله ، فجعلناهم كغناء السيل ، لا غناء فيهم ، ولا فائدة ترجى منهم .
(فبعدا للقوم الظالمين) أى فأبعد الله القوم الكافرين بهلاكهم ، إذ كفروا
بربهم وعصوا رسوله وظلموا أنفسهم .

وفى هذا من الذلة والمهانة لهم والاستخفاف بأمرهم ما لا يخفى ، وأن الذى ينزل
بهم فى الآخرة من البعد من النعيم والثواب أعظم مما حل بهم من العقاب فى الدنيا ،
وفيه عظيم العبرة لمن بعدهم ممن هم عرضة لمثله .

قصص صالح ولوط وشعيب وغيرهم

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ (٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ
أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَتْرَى ، كَلَّمَا جَاءَ
أُمَّةً رَسُولَهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاَهُمْ أَحَادِيثَ ، فَبَعْدًا
لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (٤٤)

شرح المفردات

تترى ، من الموازنة : وهى التتابع بين الأشياء مع فترة ومهلة بينها قاله الأصمى .
أحاديث : واحدها أحدوثة ، وهى ما يتحدث به تعجبيا منه وتلهايا به ، وقد جمعت العرب

ألقاظا على أفاعيل كأباطيل وأقاطيع ، وقال الزمخشري : الأحاديث اسم جمع للحديث ومنه أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن الجمهور على أنه جمع كما علمت .

الإيضاح

(ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين) أى ثم أنشأنا من بعد هلاك عاد أقواما آخرين كقوم صالح ولوط وشعيب وغيرهم .

(ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون) أى ما تتقدم أمة من تلك الأمم للهلكة ، الوقت الذى قدر لها كهم وما يستأخرون عنه .

والخلاصة — ماتهلك أمة قبل مجيء أجلها ولا بعده ، فلكل شيء ميقات لا يعدوه .

(ثم أرسلنا رسلكنا نثرى) أى ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين وقد أرسلنا إلى كل قرن منهم رسولا خاصا به ، بعضهم فى إثر بعض .

(كلما جاء أمة رسولا كذبوه) أى كلما بلغهم الرسول ما جاء به من عند ربه من الشرائع والأحكام كذبوه ، كما فعل قومك بك حين أمرتهم بذلك .

(فأتبعنا بعضهم بعضا) أى فأهلكنا بعضهم فى إثر بعض حين تألبوا على رسلكم وكذبوكم .

(وجعلناهم أحاديث) يتحدث بها الناس ويتلهون بذكرها .

ونحو الآية قوله : « جَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ » .

ولما ترتب على تكذيبهم الهلاك المقتضى لبعدهم قال :

(فبعدا لقوم لا يؤمنون) أى فأبعد الله قوما لا يؤمنون به ولا يصدقون برسوله .

قصة موسى وهرون عليهما السلام

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٤٥) إِلَى

فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (٤٦) فَقَالُوا أَنْتُمْ مِرْ

لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ
الْمُهْلَكِينَ (٤٨) وَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩).

شرح المفردات

الآيات : هى الآيات التسع التى سبقت فى سورة الأعراف ، والسلطان : الحجة
عالين : أى متكبرين ، عابدون : أى خدم منقادون ، قال أبو عبيدة : العرب تسمى
كل من دان للملك عابداً ، وقال المبرد : العابد : المطيع الخاضع ، الكتاب : هو التوراة .

الإيضاح

(ثم أرسلنا موسى وأخاه هرون بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وملئه فاستكبروا
وكانوا قوما عالين) أى ثم أرسلنا بعد الرسل الذين قد تقدم ذكرهم من قبل - موسى
وأخاه هرون إلى فرعون وأشرف قومه من القبط بالآيات والحجج الدامغة ،
والبراهين القاطعة ، فاستكبروا عن اتباعهما والانتقاد لما أمروا به ودعوا إليه من
الإيمان وترك تعذيب بنى إسرائيل كما جاء فى سورة النازعات : «أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ
إِنَّهُ طَغَى . فَتَلَّ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى . وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى » وقد كان
من دأبهم العتو والبغى على الناس وظلمهم كبرا وعلوا فى الأرض .
ثم ذكر ما استتبعه هذا العتو والجبروت .

(فقالوا أنؤمن بالبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون ؟) أى فقال فرعون وملؤه :
كيف ندين لموسى وأخيه ، وبنو إسرائيل قومهما خدمنا وعبيدنا يخضعون لنا
ويتلقون أوامرنا .

وما قصدوا بهذا إلا الزرية بهما والحط من قدرهما ، وبيان أن مثلهما غير جدير
بمنصب الرسالة ، وقد فاسوا الشرف الدينى والإمامة فى تبليغ الوحى عن الله بالرياسة
الدينوية المبنية على نيل الجاه والمال .

وهم في هذا أشبه بقريش إذ قالوا : « لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبَتَيْنِ عَظِيمٍ » وقد فاتهم أن مدار أسر النبوة والاصطفاء للرسالة إنما هو السابق في الفضائل النفسية والصفات السنية التي يتفضل الله بها على من يشاء من عباده ، فالأنبياء لصفاء نفوسهم يتصلون بالعالم العلوي وعالم المادة فيتلقون الوحي من الملأ الأعلى ويبلغونه إلى البشر ولا يعوقهم التعلق بمصالح الخلق عن التبتل والانقطاع إلى حضرة الحق .

وإن تعجب من شيء فاعجب لهؤلاء وأمثالهم ممن لم يرض النبوة للبشر ، كيف سوغت لهم أنفسهم ادعاء الألوهية لاجبر : « فَإِنِّي لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ » .

ثم ذكر عاقبة أعمالهم وما آل إليه أمرهم فقال :

(فكذبوها فكانوا من المهلكين) أى فأصر فرعون وملؤه على تكذيب موسى وهرون فأهلكهم الله بالفرق في بحر القلزم (البحر الأحمر) كما أهلك من قبلهم من الأمم بتكذيبهم لرسولهم .

ثم ذكر ما أولاه موسى بعد هلاكهم من التشريف والتكريم فقال :

(ولقد آتينا موسى الكتاب لعلمهم يهتدون) أى ولقد أنزلنا على موسى التوراة وفيها الأحكام من الأوامر والنواهي بعد أن أهلكنا فرعون وملأه وأخذناهم أخذ عزيز مقتدر رجاء أن يهتدى بها قومه إلى الحق ويعملوا بما فيها من الشرائع .

قصص عيسى عليه السلام إجمالاً

وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ

وَمَعِينٍ (٥٠)

شرح المفردات

الآية : الحجة والبرهان ، وآويناها : أى جعلنا مأواها ومنزلها الربوة وهى
 كما ارتفع من الأرض دون الجبل ، ذات قرار : أى ذات استقرار للناس لما فيها من
 الزرع والثمار ، ومعين : أى ماء جار .

الإيضاح

(وجعلنا ابن مريم وأمه آية) أى جعلنا عيسى آية للناس دالة على عظيم قدرتنا
 وبديع صنعنا إذ خلقناه من غير أب وأنطقناه فى المهد وأجرينا على يديه إبراء
 الأكمة والأبرص وإحياء الموتى ، وجعلنا أمه آية إذ حملته من غير أب :
 وجعلهما آية واحدة ، لأنهما اشتركا فى هذا الأمر العجيب الخارق للعادة
 وهو الولادة بلا أب .

ونحو الآية قوله : « وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ » .

(وآويناها إلى ربوة ذات قرار ومعين) أى وجعلناها ينزلان يرتفع من
 الأرض ذى ثمار وماء جار كثير .

قال قتادة : الربوة : بيت المقدس ، وقال مقاتل والضحاك : هى غوطة دمشق
 إذ هى ذات الثمار والماء .

يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ
 عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢)
 فَتَقَطَّعُوا أَرْهَامَهُمْ يَدْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣)
 فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ (٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ
 وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٦)

شرح المفردات

الطيبات : ما يستطاب ويستلذ من الماء كل والفواكه ، أمتكم : أى ملتكم وشريعتكم ، فنتقطعوا : أى قطعوا ومزقوا ، أمرهم : أى أمر دينهم ، زبرا : أى قطعاً واحدها زبور ، قدرهم : أى فدعهم واتركهم ، وأصل النعمة الماء الذى يغمر القامة ويستترها والمراد بها الجهالة ، حتى حين : أى إلى أن يموتوا فيستحقوا العذاب ، ندمهم : أى نعطيه مددا لهم .

المعنى الجملى

بعد أن قص سبحانه علينا قصص بعض الأنبياء السالفين - عقب هذا ببيان أنه أوصاهم جميعاً بأن يأكلوا من الحلال ، ويعملوا صالح الأعمال ، كفاء ما أنعم به عليهم من النعم العظيمة والمزايا الجليلة التى لا يقدر قدرها ، ثم حذرهم وأنذرهم بأنه عليهم بكل أعمالهم ظاهرها وباطنها ، لا تخفى عليه من أمورهم خافية ، ثم أرشدهم إلى أن الدين الحق واحد لا تعدد فيه واسكن الأمم قد فرقت دينها شيعا ، وكل أمة فرحة مسرورة بما تدين به كما هى حال قريش ، ثم خاطب رسوله بأن يتركهم وما يعتقدون إلى حين ، ثم ذكر أنهم فى عماية حين ظنوا أن ما أوتوه من النعم هو حُطوة من ربهم لهم - كلا ، فهم لا يشعرون بحقيقة أمرهم وعاقبة حالهم ، ولو عقلوا لعلموا أنهم فى سكرتهم يعمهون .

الإيضاح

(يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا) أمر الله كل نبي فى زمانه بأن يأكل من المسال الحلال مالم يوطأ ، وأن يعمل صالح الأعمال ، ليكون ذلك كفاء ما أنعم به عليه من النعم الظاهرة والباطنة .

وهذا الأمر وإن كان موجها إلى الأنبياء فإن أممهم تبع لهم ، وكأنه يقول لنا :

أيها المسلمون في جميع الأقطار، كلوا من الطيبات أى من الحلال الصافي القوام - الحلال ما لا يعصى الله فيه ، والصافي ما لا ينسى الله فيه ، والقوام ما يمسك النفس ويحفظ العقل - واعملوا صالح الأعمال .

أخرج أحمد وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم عن أم عبد الله أخت شداد ابن أوس رضى الله عنها أنها بعثت إلى النبي صلى الله عليه وسلم بقدر لبن حين فطره وهو صائم ، فرد إليها رسولها وقال : من أين لك هذا ؟ فقالت من شاة لى ، ثم رده وقال : من أين هذه الشاة ؟ فقالت اشتريتها بمالى فأخذه ، فلما كان من الغد أمته وقالت يا رسول الله : لم رددت اللبن ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : أمرت الرسل ألا يأكلوا إلا طيبا ولا يعملوا إلا صالحا .

وأخرج مسلم والترمذى وغيرهما عن أبي هريرة قال : قال صلى الله عليه وسلم : « أيها الناس ! إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا ، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ » وقال « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ » ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام يمد يديه إلى السماء يارب يارب فأنى يستجاب له ؟

وفي تقديم أكل الطيبات على العمل الصالح إيماء إلى أن العمل الصالح لا يقبل إلا إذا سبق بأكل المال الحلال .

وجاء في بعض الأخبار « إن الله تعالى لا يقبل عبادة من في جوفه لقمة من جرام » وصح أيضا « أيما لحم نبت من سحت فالنار أولى به » . ثم علل هذا الأمر بقوله :

(إني بما تعملون عليم) أى إني بأعمالكم عليم لا يخفى على شىء منها ، وأنا مجازيكم بجميعها ، وموفيكم أجوركم وثوابكم عليها ، فخذوا في صالح الأعمال واجتهدوا قدر طاقتكم فيها ، شكرا لربكم على ما أنعم به عليكم .

وفي هذا تحذير من مخالفتهم ما أمروا به ، وإذا قيل للأنبياء ذلك فما أجدر أنهم أن تأخذ حذرهما ، وترعوى عن غيرها ، وتحشى بأمر الله وشديد عقابه :
 (وإن هذه أمتكم أمة واحدة) أى وإن دينكم معشر الأنبياء دين واحد وملة واحدة ، وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له - واختلاف الشرائع والأحكام على حسب اختلاف الأزمان والأحوال لا يسمى اختلافاً في الدين ، لأن الأصول واحدة .

(وأنا ربكم فاعبدون) أى وإني أنا ربكم لا شريك لي في الربوبية فاحذروا عقابي وخافوا عذابي .

وفي هذا إيحاء إلى أن دين الجميع واحد فيما يتصل بمعرفة الله واتقاء معاصيه .
 ثم بين أن أم أولئك الرسل خالفوا أمر رسولهم واتبعوا أهواءهم وجعلوا دينهم فرقا وشيئا فقال :

(فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون) أى فتنفروا أتباع الأنبياء فرقا وجماعات ، وأصبح كل فريق معجبا بنفسه ، فرحا بما عنده ، معتقداً أنه الحق الذي لا معدل عنه .

فيا أتباع الأنبياء . أين عقولكم ؟ إن الله أرسل إليكم رسلا فجعلتوهم محل الشقاق ومثار النزاع ، لم هذا ؟ هل اختلاف الشرائع مع اتحاد الأصول والعقائد ينافي المودة والمحبة ؟ وأين أنتم يا أتباع محمد ؟ ما لكم كيف تفرقتم أحزابا ؟ هل اختلاف المذاهب كشافعية ومالكية وزيدية وشيعة يفرق العقيدة ؟ وكيف يكون هذا سبب التفرقة ؟ فهل تغير الدين ؟ وهل تغير القرآن ؟ وهل تغيرت القبلة ؟ وهل حدث إشراك ؟ كلا كلا ، فإذا كان العيب قد لحق الأمم المختلفة على تنايذها ، فما أجدركم أن يلحقكم الدم على تنايذكم وأنتم أهل دين واحد .

ولا علة لهذا إلا الجهالة الجهلاء ، فقد خيم الجهل فوق ربوعكم ومدت طنبه بين ظهرائيكم ، لأنكم فرطتم في كتاب ربكم ؛ ظننتم أن أسس الدين هي مسائل

العبادات والأحكام، وتركتم الأخلاق وراءكم ظهوريا، وتركتم آيات التوحيد والنظر في الأكوان، ولو أنكم نظرتم إلى شيء من هذا لعلمتم أن كل ذلك من دينكم وأنتم عنه غافلون .

وبعد أن ذكر سبحانه ما حدث من أمم أوثك الأنبياء من التفرق والانقسام فيما كان يجب عليهم فيه اتفاق الكلمة، ومن فرحهم بما فعلوا - أمر نبيه أن يتركهم في جهلهم الذى لاجهل فوقه، لأنه لا ينجح فيهم النصيح ولا يجدى فيهم الإرشاد فقال :

(فذرهم في غمرتهم حتى حين) أى فذرهم في غيهم وضلالهم إلى حين يرون العذاب رأى العين .

ونحو الآية قوله : « فَجَلَّ السَّكَافِرِينَ أَهْمِلَهُمْ رُوَيْدًا » وقوله : « ذَرَّهُمْ يَا كَلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمِ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » .

وقد جعلوا في غمرة تشبيها لخلهم حين ستر الجهل والحيرة عقولهم بحال من غمره الماء وغطاه .

ثم بين خطأهم فيما يظنون من أن سعة الرزق في الدنيا علامة رضا الله عنهم في الآخرة فقال :

(أَيْحَسِبُونَ أَنْ مَا نَمُدَّهِمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نَسَارِعَ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ) أى أليظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد، كرامة لهم علينا وإجلالا لأقدارهم عندنا - كلا، إن هذا الإمداد ليس إلا استدراجا في المعاصى، واستجرازا لهم في زيادة الإثم، وهم يحسبونه مسارعة في الخيرات، إذ هم أشبه بالبهائم لافطنة لهم ولا شعور حتى يتفكروا في أنه - استدراج هو أم مسارعة في الخيرات ؟ ونحو الآية قوله تعالى حكاية عنهم : « وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ » وقوله : « فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » وقوله : « إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا » .

قال قتادة في تفسير الآية : مكر الله بالقوم في أموالهم وأولادهم . يابن آدم لا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطى الدين إلا من أحب ، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه ، والذي نفس محمد بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه ، قالوا وما بوائقه يارسول الله ؟ قال غشه وظالمه . »

إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١) .

شرح المفردات

الخشية: الخوف من العقاب ، والإشفاق نهاية الخوف والمراد لازمه ، وهو دوام الطاعة ، والآيات : هى الآيات السكونية فى الأنفس والآفاق والآيات المنزلة ، وجلة : أى خائفة ، سابقون : أى ظافرون بنيلها .

المعنى الجملى

بعد أن ذم سبحانه من فرقوا دينهم شيئا وفرحوا بما عملوا وظنوا أن ما نالوه من حظوظ الدنيا هو وسيلة لنيل الثواب فى الآخرة ، وبين أنهم واهمون فيما حسبوا — فنى على ذلك بذكر صفات من له المسارعة فى الخيرات ومن هو جدير بها .

الإيضاح

(إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون) أى إن الذين هم من خوفهم من عذاب ربهم دائبون فى طاعته ، جادون فى نيل مرضاته ، فهم فى نهاية الخوف من سخطه عاجلا ومن عذابه آجلا ، ومن ثم يبتعدون عن الآثام والمعاصى .

(والذين هم بآيات ربهم يؤمنون) أى والذين هم بآيات ربهم الكونية التى نصبها فى الأنفس والآفاق دلالة على وجوده ووحدانيته ، وبآياته المنزلة على رساله - مصدقون موقنون لا يعترفهم شك ولا ريب .

(والذين هم بربهم لا يشركون) أى والذين لا يعبدون مع الله سواه ، ويعلمون أنه الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى ليس له صاحبة ولا ولد .

وفى سابق وصف لله بتوحيد الربوبية ، وهنا وصف له بتوحيد الألوهية ، ولم يقتصر على الأول ، لأن كثيراً من المشركين يعترفون بتوحيد الربوبية كما قال : « وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » ولا يعترفون بتوحيد الألوهية والعبادة ، ومن ثم عبدوا الأصنام والأوثان على طرائق شتى ، وعبدو معبودات مختلفة .

(والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجة أنهم إلى ربهم راجعون) أى والذين يعطون ما أعطوا ويتصدقون بما تصدقوا ، وقلوبهم خائفة ألا يتقبل ذلك منهم وألا يقع على الوجه المرضى حين يبعثون ويرجعون إلى ربهم وتنكشف الحقائق ويحتاج العبد إلى عمل مقبول لديه وإن قلَّ « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » .

ويدخل فى قوله : (يؤتون ما آتوا) كل حق يلزم إيتاؤه ، سواء أكان من حقوق الله كالزكاة والكفارة وغيرها أم من حقوق العباد كالودائع والديون والعدل بين الناس ، فمتى فعلوا ذلك (وقلوبهم وجة من التقصير والإخلال بها بتقصان أو غيره) اجتهدوا فى أن يوفوها حتما حين الأداء .

وسألت عائشة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله : (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة) أهو الذي يزني ويشرب الخمر ، ويسرق وهو على ذلك يخاف الله تعالى ؟ فقال لا يا بنه الصديق ، ولكن هو الرجل يصلى ويصوم ويتصدق ويحجف ألا يقبل ذلك منه .

(أولئك يسارعون في الخيرات) أى أولئك الذين جمعوا هذه المحاسن يرغبون في الطاعات أشد الرغبة ، فيبادرونها لئلا تفوتهم إذا هم ماتوا ، ويتعجلون في الدنيا وجوه الخيرات العاجلة التي وعدوا بها على الأعمال الصالحة في نحو قوله : « فَأَتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسُنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ » وقوله : « وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ » .

(وهم لها سابقون) أى إنهم يرغبون في الطاعات وهم لأجلها سابقون الناس إلى الثواب ، لا أولئك الذين أمددناهم بالمال والبنين فظنوا غير الحق أن ذلك إكرام منّا لهم ، فإن إعطاء المال والبنين والإمداد بهما لا يؤهل للمسارعة إلى الخيرات ، وإنما الذي يؤهل للخيرات هو خشية الله وعدم الإشراف به وعدم الرياء في العمل والتصديق مع الخوف منه .

ومعنى (هم لها) أنهم معذون لفعل مثلها من الأمور العظيمة ، كقولك لمن يطلب منه حاجة لا ترجى من غيره - أنت لها - وعلى هذا قوله :

مشكلات أعضلت ودهت يارسول الله أنت لها

وخالصة ذلك - إن النعم ليست هي السعادة الدنيوية ونيل الحظوظ فيها ، بل هي العمل الطيب بإيتاء الصدقات ونحوها مع إحاطة ذلك بالخوف والخشية .

وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ

لَا يُظَاهَمُونَ (٦٢) .

شرح المفردات

الوسع : ما يتسع على الإنسان فعلة ولا يضيق عليه ، والكتاب : هو صحائف الأعمال ، بالحق : أى بالصدق .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه صفات المؤمنين المخلصين الذين يسارعون إلى الخيرات - أرشد إلى أن ما كلفوا به سهل يسير لا يخرج عن حد الوسع والطاقة ، وأنه مهما قل فهو محفوظ عنده في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى ، وهو لا يظلم أحدا من خلقه ، بل يجزى بقدر العمل وبما نطقت به الصحف على وجه الحق والعدل .

الإيضاح

(ولا نكلف نفسا إلا وسعها) أى إن سنتنا جارية على ألا نكلف نفسا إلا ما فى وسعها وقدر طاقتها ، ومن ثم قال مقاتل : من لم يستطع القيام فى الصلاة فليصل قاعدا ، ومن لم يستطع التعود فليوم إيماء .
(ولدينا كتاب ينطق بالحق) أى ولدينا صحائف أعمالهم يقرءونها حين الحساب وتظهر فيها أعمالهم التى عملوها فى الدنيا دون لبس ولا ريب ، ويجازون على الجليل منها والحقير ، والقليل والكثير .

ونحو الآية قوله : « هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » وقوله : « لَا يُعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا » .
ثم بين فضله على عباده وعدله بينهم فى الجزاء إثر بيان لطفه فى التكليف وكتابة الأعمال على ما هى عليه فقال :

(وهم لا يظلمون) أى وهم لا يظلمون فى الجزاء بنقص ثواب أو زيادة عذاب ، بل يجازون بما عملوا ونطقت به كتبهم بالعدل والحق .

بَلْ قَلْبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا
 عَامِلُونَ (٦٣) حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَارُونَ (٦٤)
 لَا تَجْتَارُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنصِرُونَ (٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى
 عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ آعْقَابِكُمْ تُنكصُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ
 سَامِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧) أَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمْ
 الْأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (٦٩) أَمْ يَتَوَلَّوْنَ
 بِهِ جِبْتًا بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠) وَلَوْ اتَّبَعَ
 الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، بَلْ أَتَيْنَاهُمْ
 بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (٧١) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَّاجُ
 رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ
 (٧٣) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَّا كِيدُونَ (٧٤) وَلَوْ
 رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا فِيهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَاجْتَوَىٰ طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥) وَلَقَدْ
 أَخَذْنَا لَهُمُ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَسْكَنُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) حَتَّىٰ إِذَا
 فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧) .

شرح المفردات

الغمره : الغفلة والجهالة ، من دون ذلك : أى غير ذلك ، والمترف : المتوسع
 فى النعمة ، وجأز الرجل : صاح ورفع صوته ، لانصرون : أى لا يجيركم أحد
 ولا ينصركم ، تنكصون : أى تعرضون عن سماعها ، وأصل النكوص : الرجوع على

الأعقاب (العقب مؤخر الرجل) ورجوع الشخص على عقبه : رجوعه في طريقة الأولى كما يقال رجع عوده على بدئه ، سامرا : أى تسمرون بذكر القرآن والطعن فيه ، والهجر (بالضم) الهديان ، والجنة : الجنون ، والذكر : القرآن الذى هو نغرم ، عن ذكرهم : أى نغرم ، خرجا : أى جُعلا وأجرا ، صراط مستقيم : أى طريق لا عوج فيه ، لنا كبون : أى عادلون عن طريق الرشاد ، يقال نكب عن الطريق : إذا زاغ عنه ، لج في الأمر : تمالى فيه ، يمهون : أى يتحيرون ويترددون فى الضلال ، واستكانوا : خضعوا وذلوا ، وما يتضرعون : أى يجددون التضرع والخضوع ، مبلسون : أى متحيرون آيسون من كل خير .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه سجاحة هذا الدين وأنه دين يسر لا عسر فلا يكلف النفس إلا ما تطيق ، وأن ما يعمل المرء فهو محفوظ فى كتاب لا يبغض منه شيئا ولا يزداد له فيه شيء - أردف هذا ببيان أن المشركين فى غفلة عن هذا الذى بين فى القرآن ولهم أعمال سوء أخرى من فنون الكفر والمعاصى كطعنهم فى القرآن واستهزائهم بالنبي صلى الله عليه وسلم وإيذائهم للمؤمنين ، فإذا حل بهم بأسنا يوم القيامة جأروا واستغاثوا فقلنا لهم لافائدة فيما تعملون ، فقد جاءتكم الآيات والنذر فأعرضتم عنها واتخذتموها هزوا تسمرون بها فى البيت الحرام وقد كان من حركم أن تتدبروا القرآن لتعلموا أنه الحق من ربكم ، وأن مجيء الكتب إلى الرسل سنة قديمة فكيف تنكرونها ، وهل رابكم فى رسولكم شيء حتى تمنعوا من تصديقه وتقولوا إن به حجة وأتم تعلمون أنه أرجح الناس عقلا وأتقهم رأيا - لا - إن الأمر على غير ما تظنون ، إنه قد جاءكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون ، لما دسيتم به أنفسكم من الزيف والانصراف عن سبيل الحق ، ولو أجابكم ربكم إلى ما فى أنفسكم من الهوى وشرع الأمور وفق ذلك لفسدت السموات والأرض لفساد أهوائكم

واختلافها ، وأتمت نواتم لمعلمتم أن ماجاءكم به هو فخركم فكيف تعرضون عنه ، وهل تظنون أنه يسألكم أجرا على هدايتكم وإرشادكم فما عند الله خير مما عندكم وهو خير الرازقين . فما هو ذا قد تبين الرشد من الغي واستبان أن ما تدعوهم إليه هو الحق الذي لا محيص منه ، وأن الذين لا يؤمنون به عادلون عن طريق الحق ، وقد بلغوا حدا من التمرد والعناد لا يرجى معه صلاح ، فلو أنهم ردوا في الآخرة إلى الدنيا لعادوا لما نهوا عنه لشدة لحاجهم وتدسيتهم لأنفسهم .

ولقد قتلنا سراهم بالسيف يوم بدر فما خضعوا ولا انقادوا لربهم ولا رددهم ذلك عما كانوا فيه ، بل استمروا في غيهم وضلالهم كما قال « فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا » .

فإذا جاءتهم الساعة بغتة وأخذهم من عذاب الله ما لم يكونوا يحتسبون ، أيسوا من كل خير وانقطع رجائهم من كل راحة وسعادة .

الإيضاح

(بل قلوبهم في غمرة من هذا) أى بل قلوب المشركين في غفلة عن هدى القرآن والاسترشاد بما جاء به مما فيه سعادة الناس في دينهم ودنياهم ، فلو قرءوه وتدبروه لرأوا أنه كتاب ينطق بالصدق ، وأنه يقضى بأن أعمال المرء مهما دقت فهو محاسب عليها ، وإن ربك لا يظلم أحدا من عباده .

ثم ذكر جنائبات أخرى لهم فوق جنائبتهم السابقة فقال :

(ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون) أى إن لهم أعمالا أخرى أسوأ من ذلك ، فقد أغرقوا في الشرك والمعاصي واتخذوا هذا الكتاب هزوا وجعلوه سمرهم في البيت الحرام يقولون فيه ما هو منه براء ، يقولون إن هو إلا سحر مفترى ، وما هو إلا أساطير الأولين ، وما هو إلا كلام شاعر ، ويتقولون على من أرسل به فيزعمون أنه رجل به جنة ، وأنه قد تعلمه من غيره من أهل الكتاب ، وانغمسوا في عبادة

الأوثان والأصنام ، ولقد تراهم إذا جاء البرهان الساطع أعرضوا عنه وقالوا : إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون .

(حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون) أى حتى إذا حلّ بهم بأسنا يوم القيامة وحقّ بهم سوء العذاب صاحوا صيحة منكّرة وقالوا : واغوثاه ، ووأسوه منقلبها ، لشدة ما يرون من الكرب والهول ، ولا سيما مترفهم الذى انقلب أمرهم من النعيم إلى العذاب الأليم ، وندموا حين لا ينفع الندم :
ندم البغاة ولات ساعة مندم والبقى مرتع مبتغيه وخيم

ثم أبان أن الصريح والعويل لا يجديهم نفعاً فقال :

(لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون) أى قلنا لهم : هيهات هيهات ، قد فات ما فات ، الآن لا يجديكم البكاء والعويل ، فهذا وقت الجزاء على ما كسبت أيديكم ، وقد حقت عليكم كلمة ربكم ، ولا مغيث من أمره ، ولا ناصر يحول بينكم وبين بأسه . ولا يخفى ما فى ذلك من التهويل الشديد لذلك اليوم وأنه لا تجدى فيه ضراعة ولا استغاثة ، ولا ينفع فيه ولى ولا نصير .

ثم ذكر سبباً آخر يبين أن البكاء والصراخ لا ينفع شيئاً فقال :

(قد كانت آياتى تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون) أى دعوا الصراخ فإنه لا ينفعكم منا ، واتركوا النصير فإنه لا ينفعكم عندنا ، فقد ركبتم شططا وجاءكم الآيات والنذر فأعرضتم عن سماعها ، فضلا عن تصديقها والعمل بها ، وكنتم كمن ينكص على عقبيه موليا القهقرى ، نافرا مما يسمع ويرى .

ثم ذكر سبباً ثالثاً يدعو إلى التنكيل بهم والتشديد فى عذابهم فقال :

(مستكبرين به سامرا تهجرون) أى تعرضون عن الإيمان مستعظمين بالبيت الحرام ، تقولون نحن أهل حرمة وخدام بيته ، فلا يظهر علينا أحد ولا نخاف أحداً ، وتسمرون حوله وتتخذون القرآن سلواكم ، والطعن فيه هجيراًكم ، تهذون فتقولون : هو سحر ، هو شعر ، هو كهانة إلى آخر ما يحلو لبيكم أن تتقولوه .

والخلاصة — إنكم كنتم عن سماع آياتي معرضين ، مستعظمين بأنكم خدام البيت وجيرانه ، فلا تضامون ، وتهذون في أمر القرآن وتقولون فيه ما ليس فيه مسحة من الحق ، ولا جانب من صواب .

ثم أتيتهم على ما فعلوا وبين أن إقدامهم عليه لا بد أن يكون لأحد أسباب أربعة فقال :

(١) (أفلم يدبروا القول) أي إنهم لم يتدبروا القرآن فيعملوا ما خص به من فصاحة وبلاغة ، وقد كان لديهم فسحة من الوقت تمكنهم من التدبر فيه ومعرفة أنه الحق من ربهم وأنه مبرأ من التناقض وسائر العيوب التي تعترى الكلام — إلى ما فيه من حجج دامغة ، وبراهين ساطعة ، إلى ما فيه من فضائل الآداب ، وسامى الأخلاق ، إلى ما فيه من تشريع إن هم اتبعوه كانوا سادة البشر ، واتباعهم الأسود والأحر ، كما كان لمن اتبعه من السابقين الأولين من المؤمنين .

(٢) (أم جاءهم مالم يأت آباءهم الأولين) أي أم اعتقدوا أن مجيء الرسل أمر لم تسبق به السنن من قبلهم ، فاستبعدوا وقوعه ، لكنهم قد عرفوا بالتواتر أن الرسل كانت تتثرى وتظهر على أيديهم المعجزات ، فهلا كان ذلك داعيا لهم إلى التصديق بهذا الرسول الذي جاء بذلك الكتاب الذي لا ريب فيه .

(٣) (أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون) أي أم إنهم لم يعرفوا رسولهم بأمانته وصدقه وجميل خصاله قبل أن يدعى النبوة ، كلا ، إنهم لقد عرفوه بكل فضيلة وشهر لديهم باسم (الأمين) فكيف ينكرون رسالته ، ولقد قال جعفر ابن أبي طالب رضى الله عنه للنجاشي : إن الله بعث فينا رسولا نعرف نسبه ، ونعرف صدقه وأمانته ، وكذلك قال أبو سفيان لملك الروم حين سأله وأصحابه عن نسبه وصدقه وأمانته ، وقد كانوا بعد كفار لم يسموا .

(٤) (أم يقولون به جنة) أي أم إن به جنونا فلا يدري ما يقول ، مع أنهم يعلمون أنه أرجح الناس عقلا وأتقهم ذمنا وأوفرهم رزانا .

و بعد أن عدد سبحانه هذه الوجوه ونبه إلى فسادها بين وجه الحق في عدم إيمانهم فقال :

(بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون) أى إن ما جاءهم به هو الحق الذى لا محيص منه ، فما هو إلا توحيد الله وما شرعه لعباده مما فيه سعادة البشر ، لكن أكثرهم جبلوا على الزيف والانحراف عن الحق ، لما ران على قلوبهم من ظلمات الشرك والإسراف فى الآثام والمعاصى ، وهن ثم فهم لا يفتقرون الحق ولا تستسيغه نفوسهم فهم له كارهون .

وإنما نسب هذا الحكم للأكثر ، لأن فيهم من ترك الإيمان أنفة من توبيخ قومه وأن يقولوا : ترك دين أبائنا ، لا كراهة للحق ، كما أثر عن أبى طالب من قوله :

فوالله لولا أن أجيء بسببة تجرّ على أشياخنا فى القبايل
إذاً لا تبعنا على كل حالة من الدهر جدا غير قول التخاذل

ثم بين سبحانه أن اتباع الهوى يؤدى إلى الفساد العظيم فقال :

(ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن) أى ولو سلك القرآن طريقهم ، بأن جاء مؤيدا للشرك بالله واتخاذ الولد (تعالى الله عن ذلك) وزين الآثام واجترأ السيئات لاختل نظام العالم كما جاء فى قوله : « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا » ولو أباح الظلم وترك العدل لوقع الناس فى هرج ومرج ، ولوقع أمر الجماعات فى اضطراب وفساد ، والمشاهد فى الأمم التى يقشوا فيها التخاذل والنزلة والمسكنة يتحول أمرها إلى الزوال ، ولو أباح العدوان واغتصاب الأموال وأن يكون الضعيف فريسة للثوى ، لما استتب أمن وماسد نظام ، وحال العرب قبل الإسلام شاهد صدق على ذلك .

ولو أباح الزنا لفسدت الأنساب وما عرف والد ولده فلا تتكوّن الأسر ولا يكون من يعول الأبناء ولا يبحث لهم عن رزق ، فيكونون شرّدا فى الطرقات لا مأوى لهم ، ولا عائل يقوم بشؤونهم ، وأكبر برهان على هذا ما هو حادث فى أوربا .

الآن من وجود نسل بازدواج غير شرعى بما نتن منه الأمم والجماعات ؛ إلى نحو أولئك مما سبق ذكره من قبل وفصلناه تفصيلا .

وبعد أن أنبئهم إلى كراهتهم للحق ، شنع عليهم لإعراضهم عما فيه الخير لهم وهو يخالف ما جيلت عليه النفوس من الرغبة فى ذلك فقال :

(بل أتيناكم بذكرهم فيهم عن ذكرهم معرضون) أى بل جئناهم بالقرآن الذى فيه نغزهم وشرفهم فأعرضوا عنه ونكصوا على أعقابهم وازدروا به وجعلوه هزوا وسخرية ، وما كان لهم من الخير أن يفعلوا ذلك .

ونحو الآية قوله : « وَإِنَّهُ لَدِكْرٌ لَّكَ وَتَقْوَمِكَ » .

ثم نفي عن رسوله صلى الله عليه وسلم ما ربما صددهم عن دعوته وهو طلبه المال منهم أجرا لنصحته وإرشاده فقال :

(أم تسألهم خراجا فخراج ربك خير) أى أم يزعمون أنك طلبت منهم أجرا على تبليغ الرسالة ، فلاجل هذا لا يؤمنون .

والمراد — إنك لا تسألهم أجرا ، فإن ما رزقك الله فى الدنيا والعقبى خير من ذلك ، لسمته ودوامه وعدم تحمل منة فيه ، ولأنك تحتسب أجره عند الله لا عندهم .

ونحو الآية قوله : « قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ » وقوله : « قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ » وقوله : « قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى » .

(وهو خير الرازقين) تؤكد لما قبله ، إذ من يكون خير الرازقين يكون رزقه خيرا من رزق غيره .

وبعد أن فند آراءهم أتبعها ببيان صحة ما جاء به الرسول وأنه الحق الذى لا معدل عنه فقال :

(وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم) أى وإنك لتدعو هؤلاء المشركين من

قومك إلى ذلك الدين القيم الذى تشهد العقول السليمة باستقامته، وبعده عن الضلال والهوى والإعوجاج والزيغ .

وخلاصة ما سبق ما قاله صاحب الكشاف : قد أُرهم الحجة في هذه الآيات وقطع معاذيرهم وعللهم - بأن الذى أرسل إليهم رجل معروف أمره ، وحاله محبور ، وسره وعلنه خليق بأن يجتنب مثله للرسالة من بين ظهرانيهم ، وأنه لم يعرض له حتى يدعى بمثل هذه الدعوى العظيمة بباطل ، ولم يجعل ذلك سلماً إلى النيل من دنياهم واستعطاء أموالهم ، ولم يدعهم إلا إلى دين الإسلام الذى هو الصراط المستقيم مع إبراز المسكون من أدوائهم ، وهو إخلالهم بالتدبر والتأمل ، واستهتارهم بدين الآباء الضلال من غير برهان وتعلم بأنه مجنون بعد ظهور الحق ، وثبات التصديق من الله بالمعجزات والآيات النيرة ، وكرهتهم للحق وإعراضهم عما فيه حظهم من الذكراه .

ثم بين أن الذين ينكرون البعث هم في ضلال مبين فقال :

(وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لنا كبون) أى وإن الذين لا يصدقون بالبعث بعد الموت ، وقيام الساعة ومجازاة الله عباده فى الآخرة - عادلون عن محجة الحق وعن قصد السبيل وهو دين الله الذى ارتضاه لعباده ونصب الأدلة عليه .

(ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضرر للجوا فى طغيانهم يعمهون) أى إنهم بلغوا فى التمرد والعناد حدا لا يرجى معه صلاح لهم ، فلو أنهم ردوا فى الآخرة إلى الدنيا لعادوا لما نهوا عنه ، لشدة لجاجهم وتدسيتهم لأنفسهم .

(ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون) أى ولقد قتلنا سراهم بالسيف يوم بدر ، فما خضعوا لربهم ولا انقادوا لأمره ونهيه ، ولا تذلوا ولا ردهم ذلك عما كانوا فيه ، بل استمروا فى غيرهم وضلالهم .

ونحو الآية قوله : « فَاُولَآئِـذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا » .

ثم أبان عاقبة أمرهم وما يكون من حالهم إذا جاءت الساعة فقال :

(حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبسوتون) أى حتى إذا جاءهم أمر الله وجاءتهم الساعة بغتة وأخذهم من العذاب ما لم يكونوا يحتسبون - أيسوا من كل خير وانقطعت آمالهم وخاب رجائهم .

وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٧٨) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ (٨٠) .

شرح المفردات

ذراً كم فى الأرض : أى خلقكم وبشكم فيها ، اختلاف الليل والنهار : تعاقبهما من قولهم : فلان يختلف إلى فلان : أى يتردد عليه بالجيء والذهاب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه إعراض المشركين عن سماع الأدلة ورؤية العبر والتأمل فى الحقائق - أردف ذلك بالامتنان على عباده بأنه قد أعطاهم الحواس من السمع والبصر وغيرهما ووقفهم لاستعمالها ، وكان من حقهم أن يستفيدوا بها ليستبين لهم الرشد من الغى ، لكنهم لم تكن عنهم شيئاً فكأنهم فتدوها كما قال : « فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ » ثم ساق أدلة أخرى على وجوده وقدرته فبين أنه أوجدهم من العدم وأن حشرهم إليه ، وأنه هو الذى يحييهم ثم يميتهم وأنه هو الذى يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ، أفلا عقل لكم تتأملون به فيما تشهدون ؟ .

الإيضاح

امتن سبحانه على عباده بأمور هي دلائل قدرته وواسع علمه فقال :

(١) (وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة) أى والله هو الذى أحدث لكم السمع لتسمعوا به الأصوات التى تخاطبون بها ، والأبصار لتشاهدوا بها الأضواء والألوان والأشكال المختلفة ، والعقول لتفقهوا بها ما ينفعكم ويوصلكم إلى سعادة الحياتين الدنيا والعقبى .

وخص هذه الثلاثة بالذكر ، لأنها طريق الاستدلال الحسى والعقلى لمعرفة الموجودات .

(قليلا ما تشكرون) تقول العرب للكفور الجحود للنعمة : ما أقل شكر فلان على نعمتى على معنى أنه لم يشكرها ، فالمراد هنا أنكم لم تشكروه على هذه النعم العظيمة ، وقد كان ينبغى أن تشكروه عليها فى كل حين .

(٢) (وهو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون) أى وهو الذى خلقكم فى الأرض وبشكم فيها على اختلاف أجناسكم ولغاتكم ، ثم يجمعكم لبيقات يوم معلوم فى دار لا حاكم فيها سواه .

(٣) (وهو الذى يحيى ويميت) أى وهو الذى جعل الخلق أحياء بنفخ الروح فيهم بعد أن لم يكونوا شيئا ، ثم يميتهم بعد أن أحياهم ، ثم يعيدهم تارة أخرى للثواب والجزاء .

(٤) (وله اختلاف الليل والنهار) أى وهو الذى سخر الليل والنهار وجعلهما متعاقبين يطلب كل منهما الآخر طلبا حثيثا ، لا يملآن ولا يفترقان كما قال : « لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ » .

ثم أتت من ترك النظر فى كل هذا فقال :

(أفلا تعقلون؟) أى أفلا تتفكرون فى هذه الموجودات لتعلموا أن هذه صنع الإله
للعليم القادر على كل شيء ، وأن كل شيء خاضع له تحت قبضته دال على وجوده؟.

بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا
وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ؟ (٨٢) لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ ،
إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٨٣) .

شرح المفردات

الأساطير: الأكاذيب واحدها أسطورة كأحدوثه وأعجوبة، قاله المبرد وجماعة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أدلة التوحيد الماثورة فى الأكوان والأنفس والتي يراها الناس
فى كل آن - أعقبها بذكر البعث والحشر وإنكار المشركين لها ، وتردادهم مقالة
من سبقهم من الكافرين الجاحدين فى استبعادها والتكذيب بحصولها .

الإيضاح

(بل قالوا مثل ما قال الأولون) أى ما اعتبر هؤلاء المشركون بآيات الله
ولا تدبروا حججه الدالة على قدرته على فعل كل ما يريد ، كإعادة الأجسام بالبعث ،
وحياتها حياة أخرى للحساب والجزاء ، بل قالوا مثل مقالة أسلافهم من الأمم المكذبة
لرسلها من قبلهم ، تقليداً لهم دون برهان ولا دليل .
ثم فصل تلك المقالة . فقال :

(قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون) أى قالوا أئذا متنا وصرنا
ترابا قد بايت أجسامنا وجردت عظامنا من لحومنا : أئنا لمبعوثون من قبورنا أحياء
كهيئتنا قبل المات ؟ إن هذا لن يكون .

ثم أكدوا هذا الإنكار بقولهم :

(لقد وعدنا نحن وآبائنا هذا من قبل) أى قالوا : لقد وعدنا هذا الوعد الذى تعدنا به ، ووعد آباؤنا من قبل مثل هذا على أيدي قوم زعموا أنهم رسل الله ، ثم لم يوجد ذلك مع طول العهد .

ثم زادوا فى تأكيد الإنكار فقالوا :

(إن هذا إلا أساطير الأولين) أى ما هذا الذى تعدنا به من البعث بعد الممات إلا أكاذيب الأولين ، قد تلقنناها منهم دون أن يكون لها ظل من الحقيقة ولا نصيب من الصحة .

ونحو الآية قوله حكاية عنهم : « أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخْرَةً . قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ . فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ » وقوله : « أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْقَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ . وَضَرَبَ لَنَا مِثْلًا وَنَدَى خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ، قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » .

قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ، قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ، (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ، قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ؟ (٨٧) قُلْ مَنْ يَدْرِي مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ، قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ؟ (٨٩) بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٩٠) .

شرح المفردات

تتقون : أى تحذرون عقابه ، الملكوت : الملك والتدبير ، يجير : أى يغيث ، من قولهم أجزت فلانا من فلان إذا أنقذته منه ، ولا يجار عليه : أى لا يعين أحد منه أحدا ، تسحرون : أى تخدعون وتصرفون عن الرشد .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه شبهات المشركين فى أمر البعث والحساب والجزاء وأحوال النشأة الآخرة - عقب ذلك بذكر الأدلة التى تثبت تحققه وأنه كائن لا محالة .

الإيضاح

احتج سبحانه عليهم لإثبات البعث ببهانات ثلاثة :

(١) (قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟) أى قل أيها الرسول لهؤلاء المكذبين بالآخرة من قومك : لمن ملك السموات والأرض ومن فيها من الخلق ، إن كنتم من أهل العلم بذلك ؟

وفى قوله : (إن كنتم تعلمون) استهانة بهم وتوكيد لفرط جهالتهم كما لا يخفى . ولما كانت بدهة العقل تضطربهم أن يجيبوا بأن الخالق لها هو الله - أخبر عن الجواب قبل أن يجيبوا فقال :

(سيقولون لله) أى إنهم سيقرون بأنها لله ملكا وخالقا وتديبرا دون غيره .

ثم رغبهم فى التدبر ليعلموا بطلان ما هم عليه فقال :

(قل أفلا تدكرون؟) أى قل لهم حين يعترفون بذلك موبخا لهم : أفلا تدبرون فتعلموا أن من قدر على خلق ذلك ابتداء؟ - فهو قادر على إحيائهم بعد مماتهم ، وإعادتهم خلقا جديدا بعد فناهم .

(٢) (قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟) أى قل لهم :

من خلق السموات وخلق العرش المحيط بهن كما قال : « وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ » ومن يدبر أمرهن على هذا الوضع البديع والنظام العجيب ؟ كما قال : « فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا » .

(سيقولون لله) الذى له كل شيء وهو رب ذلك ، ليس لهم جواب غيره .

ولما تأكد الأمر وزاد وضوحا حسن التهديد فقال :

(قل أفلا تتقون ؟) أى قل لهم منكرا وموبخا : أتعلمون ذلك ولا تقون

أنفسكم عقاب ربكم ، فتذكروا ما أخبر به من البعث .

وبعد أن قرره بأن العالمين العلوى والسفلى ملك له تعالى - أمره أن يقرره

بأن له تدبير شئونهما وتدبير كل شيء فقال :

(٣) (قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم

تعلمون) أى قل لهم : من المالك لكل شيء ؟ والمدبر لكل شيء ؟ وفى قبضته

وتحت سلطانه وتصرفه كل شيء ؟ وهو يغيث من يشاء فيكون فى حرز لا يقدر أحد

على الدنو منه ، ولا يغيث أحد ولا يمنع منه ، لأنه ليس فى العوالم كلها ما هو

خارج من قبضته .

وإخلاصة — إنه المدبر لنظام العالم جميعه وهو الذى يغيث من شاء ولا يستطيع

أحد أن يغيث منه .

(سيقولون لله) الذى بيده ذلك دون غيره .

(قل فأنى تسحرون ؟) أى قل لهم على طريق الاستهجان والتوبيخ : كيف

تخدعون وتصرفون عن توحيد الله وطاعته ؟ فأنتم بعبادة الأصنام أو بعض البشر

قد سحرت عقولكم كأنما غابت عن رشدها ، واعتراها الذهول ، فتصورت

الأشياء على غير ما هى عليها .

وقد ثبت بالتجربة أن تكرار الكلام يخدع العقول والحواس حتى تتخيل غير

الحق حقا وتتهم صدق ما يقال وإن كان باطلا ، ومن ثم كثرت المذاهب الإسلامية

وابتدع الرؤساء الدينيون والسياسيون من الأساليب ما خدعوا به عقول الشعوب

فى دينهم وديانهم .

والخلاصة — إن الكتاب الكريم عبر عن انصراف المشركين عن الحقائق للموساة إلى ما لا أصل له إلا في أوهامهم وخيالاتهم بالسحر ، فإن قوما يعترفون بأنه خالق للسموات والأرض بل للعالم كله ، ثم هم بعد ذلك يقولون إن له شريكا — ليس له من سر إلا أن العقول قد سحرت عن أن تفهم الحقائق ، وعولت على الاقتناع بالترهات والأباطيل .

(بل آتيناكم بالحق وإنهم الكاذبون) أى ليس الأمر كما يزعم هؤلاء المشركون من قولهم : إن هذا إلا أساطير الأولين ، بل جئناهم فيه بالدين الحق الذى فيه سعادة البشر ، وإنهم الكاذبون فى إنكار ذلك ، لأن عقولهم قد سحرت بخدع الآباء وتكرار القول وحكم العادة وهى طبيعة ثانية .

مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ
بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ (٩١)
عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَمَا عَلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢) .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أن المشركين كاذبون فى إنكار البعث والجزاء ، وفى مقتاتهم : إن القرآن أساطير الأولين ، قفى على ذلك ببيان أنهم كاذبون فى أمرين آخرين . اتخذ الله للولد ، وإثبات الشريك له .

الإيضاح

نقى سبحانه عن نفسه شيئين :

(١) (ما اتخذ الله من ولد) أى ليس له ولد كما زعم قوم من المشركين حين

قالوا : الملائكة بنات الله ، وكيف يكون له ذلك ولا مثل له ولا نداء ، والولد إنما يتخذ للحاجة إلى النصير والمعين ، والله غني عن كل شيء .

(٢) (وما كان معه من إله) يشركه في الألوهية لا قبل خلق العالم ولا حين خلقه له ولا بعد خلقه .

ثم ذكر دليلين على بطلان تعدد الآلهة فقال :

(١) (إذاً لذهب كل إله بما خلق) أى لو قدر تعدد الآلهة لانفرد كل منهم بما خلق إذ لكل صانع ضرب من الصنعة يغير صنعة سواه ، فكان يحصل التباين في نظام الخلق والإيجاد ، ويوجد الاختلاف بين المخلوقات المتحددة الأنواع فلا ينتظم الكون ، والمشاهد أنه منتظم متسق ، وهو الغاية في الكمال كما قال : « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوتٍ » .

(ب) (ولعل بعضهم على بعض) أى ولكان لكل منهم أن يطلب قهر الآخر وغلبته ، فيعلو بعضهم على بعض كما هو حال ملوك الدنيا ، وإذ لم تروا أثراً للتحارب والتغالب فاعلموا أنه إله واحد بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون .

وبعد أن وضح الحق وصار كفاق الصبح جاء بما هو كالتنتيجة لذلك فقال :

(سبحان الله عما يصفون) أى تنزه ربنا وتقدس عما يقوله الكافرون من أن له ولداً أو شريكاً .

ثم وصف نفسه بصفات الكمال فقال :

(عالم الغيب والشهادة) أى هو العالم بما غاب عن خلقه من الأشياء فلا يرونها ولا يشاهدونها ، وبما يرونها ويبصرونها ، والمراد أن الذين قالوا بالولد والشريك مخطئون فيما قالوا ، فإنهم يقولون عن غير علم ، وأن الذى يعلم الأشياء شاهداً وغائباً ولا تخفى عليه خافية من أمرها - قد تفى ذلك ، نخبره هو الحق دون خبرهم .

(فتعالى عما يشركون) أى تقدس عما يقول الجاحدون الظالمون .

قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيئِنِي مَا يُوعَدُونَ (٩٣) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ
 الظَّالِمِينَ (٩٤) وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ (٩٥) اذْفَعْ بِالَّتِي
 هِيَ أَحْسَنُ السَّبِيئَةِ ، نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ
 مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (٩٨) حَتَّىٰ إِذَا
 جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا
 تَرَكْتُ ، كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ
 يُبْعَثُونَ (١٠٠) .

شرح المفردات

الهمزات : الوسوس المغرية بمخالفة ما أمرنا به ، واحدها همزة ، وأصل الهمز
 النخس والدفع بيد أو غيرها ، ومنه مهماز الرائض (حديدة توضع في مؤخر الرجل
 ينفخس بها الدابة لتسرع) كلا : كلمة تستعمل للردع والزجر عن حصول ما يطلب ،
 من ورأيهم : أى من أمامهم ، برزخ : أى حاجز بينهم وبين الرجمة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه ما لهم من مقالات السوء كإنكار البعث والجزاء واتخاذ
 الولد ووصف الله بما لا يليق به ، وكان كل هذا مما يدعو إلى استئصالهم وأخذهم
 بالعذاب - أمر رسوله أن يدعوهم بالألا يجعله قرينا لهم فيما يحق بهم من العذاب ، ثم
 ذكر أنه قدير على أن يجعل لهم العذاب ولكنه أخره ليوم معلوم ، ثم أرشده إلى
 الترياق النافع في مخالطة الناس ، وهو إحسان المرء إلى من يسيء إليه حتى تعود عداوته
 صداقة وعنه لنا .

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم . فطالما استعبد الإنسان إحسان

ثم أمره أن يستعيز من حيل الشياطين وأن يحضروه في أى عمل من أعماله ، ولا يكون كالكافرين الذين قبلوا همزها وأطاعوا وسوستها ، حتى إذا ما حان وقت الاحتضار تمنوا أن يعودوا إلى الدنيا ليعملوا صالحا ، وإنه لا يسمع لمثل هؤلاء دعاء ، فإنه لا رجعة لهم بعد هذا ، وأمامهم حاجز يحول بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا إلى يوم البعث .

الإيضاح

(قل رب إما ترى ما يوعدون . رب فلا تجعلنى فى القوم الظالمين) أى قل رب إن عاقبتهم وأنا مشاهد ذلك فلا تجعلنى فيهم ولا تهلكنى بما تهلكهم به ، ونجنى من عذابك وسخطك ، واجعلنى ممن رضيت عنه من أوليائك .

وفى أمره بذلك إيماء إلى أن العذاب قد يلحق غير من هو أهل له كما قال : « وَأَنْتَقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً » .

روى الإمام أحمد والترمذى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يدعو « وإذا أردت بقوم فتنة فتوفنى إليك غير مفتون » .

(وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون) أى وإنا أيها الرسول لقادرون على أن نريك ما ننزله بهم من العذاب ، فلا يحزننك تكذيبهم بك ، وإنما نؤخره حتى يبلغ الكتاب أجله ، علما منا أن بعضهم أو بعض أعقابهم سيؤمن ، ومن جبراء ذلك لانستأصلهم ولا ندمحو آثارهم .

ثم أرشده إلى ما يفعل بهم إذا حلقة أذاهم فقال :

(ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون) أى ادفع الأذى عنك بالخصلة التى هي أحسن بالإغضاء والصفح عن جهلهم والصبر على أذاهم وتكذيبهم بما أتيتهم به من عند ربك ، ونحن أعلم بما يصفوننا به وينحلونه إيانا من الاختلاق والأكاذيب

وبما يقولون فيك من السوء وهجر القول ومجازوهم على ما يقولون ، فلا يحزنك ذلك واصبر صبيرا جميلا .

ونحو الآية قوله : « اُدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّبِيَّةِ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ » .

روى عن أنس رضى الله عنه أنه قال فى الآية : « يقول الرجل لأخيه ما ليس فيه فيقول له : إن كنت كاذبا فإني أسأل الله أن يغفر لك ، وإن كنت صادقا فإني أسأل الله أن يغفر لى » .

ولما أدب سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يدفع بالحسنى أرشده إلى ما به يقوى على ذلك فقال :

(وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين . وأعوذ بك رب أن يحضرون) أى
وقل : رب أتبجى إليك من أن يصل إلى الشياطين بوساوسهم ، وأن يبعثوا إلى أعدائك لإيذائى ، وهكذا يدعو المؤمنون فإن الشيطان لا يصل إليهم إلا بأحد هذين الأمرين .

وإذا انقطع العبد إلى مولاه وتبتل إليه وسأله أن يعيده من الشياطين استيقظ قلبه وتذكر ربه فيما يأتى ويذر ، ودعاه ذلك إلى التمسك بالطاعة وازدجر عن المعصية . وقد استماد صلى الله عليه وسلم أن تحضره الشياطين فى عمل من أعماله ولا سيما حين الصلاة وقراءة القرآن وحلول الأجل .

أخرج أحمد وأبو داود والترمذى وحسنه والبيهقى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينامنا كلمات تقولها عند النوم خوف الفزع : بسم الله أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه ، وشر عباده ، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون ، قال فكان ابن عمرو يعلمها من بلغ من أولاده أن يقولها عند نومه ، ومن كان منهم صغيرا لا يعقل أن يحفظها كتبها له فعلمها فى عنقه » .

وأخرج أحمد عن الوليد بن الوليد أنه قال : « يا رسول الله إني أجد وحشة ، قال : إذا أخذت مضجعتك فقل : أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون ، فإنه لا يحضرك وبالحرى لا يضرك » .
وروى أبو داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « اللهم إني أعوذ بك من الهرم وأعوذ بك من الهدم ومن الفرق ، وأعوذ بك أن تشخبطني الشياطين عند الموت » .

ثم أخبر عما يقوله الكافرون حين معاينة الموت من سؤال الرجعة إلى الدنيا ليصلحوا ما كانوا قد أفسدوا حال حياتهم فقال :

(حتى إذا جاء أحدكم الموت قال رب ارجعون . لعلى أعمل صالحا فيما تركت)
أى ولا يزال الكافر يجترح السيئات ولا يبالي بما أتى وبما يذر من الآثام والأوزار ، حتى إذا جاءه الموت وعاین ما هو قادم عليه من عذاب الله ندم على ما فات وأسف على ما فرط فى جنب الله وقال : رب ارجعنى إلى الدنيا لأعمل صالحا فيما قصرت فيه من عبادتك وحقوق خلقك .

وخلاصة ذلك — إنه حين الاحتضار يعاین ما هو مقبل عليه من العذاب فيتمنى أن يرجع إلى الدنيا ليصلح ما أفسد ويطيع فيما عمى .

ونحو الآية قوله : « وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ، فَأَرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ » وقوله : « وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ قَبَلُوا يَا لَيْدِنَا تَرَدُّ وَلَا نُنْكَدُّ بِآيَاتِ رَبِّنَا » وقوله : « وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأُوا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّنْ سَبِيلٍ » وقوله : « وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ، أَوْ لَمْ نُعَمَّرْكُمْ مَا يَتَدَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَدَكَّرٍ وَجَاءَ كُمْ التَّذْيِيرُ ؟ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَّصِيرٍ » .

ومن كل هذا تعلم أنهم يطلبون الرجعة حين الاحتضار، وحين النشور، وحين العرض على الملك الجبار، وحين يعرضون على النار وهم في غمرات جهنم، فلا يجابون إليها في كل حال .

(كلا إنها كلمة هو قائلها) أى إننا لا نجيبه إلى ما طلب ، لأن طلبه الرد ليعمل صالحا هو قول فقط ولا عمل معه وهو كاذب فيه ، فلورد لما عمل كما قال : «وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ» .

(ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) أى ومن أمامهم حاجز يحول بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا إلى يوم القيامة .

وفي هذا تبيس لهم من الرجوع أبدا ، لأنهم إذا لم يرجعوا قبل يوم القيامة ، فهم بعدها لا يرجعون أبدا ، لما علم أنه لا رجعة بعد البعث إلا إلى الآخرة .

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١)
 فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ
 فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ
 النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ
 بِهَا تُسْكَذِبُونَ (١٠٥) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ
 (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) قَالَ اخْسِئُوا فِيهَا
 وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ : رَبَّنَا آمَنَّا
 فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذَ تَمُوهِمُ سِحْرِيًّا حَتَّىٰ
 أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ
 بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآئِزُونَ (١١١) .

شرح المفردات

الصور واحدها صورة نحو بسر وبسرة : أى نفخت فى الأجساد أرواحها ، ولا يتساءلون : أى لا يسأل بعضهم بعضا ، موازينه أى موزوناته وهى حسناته ، المفلحون : أى الفائزون ، خسروا أنفسهم : أى غبنوها ، تلفح : أى تحرق ، كالحون : أى عابسون متقلصو الشفاه ، الشقوة والشقاوة : سوء العاقبة ، وهى ضد السعادة ، اخسثوا : أى اسكتوا سكوت ذلة وهوان ، سخرىا : أى هزوا ، ذكرى : أى خوف عقابى .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن وراء الرجوع إلى الدنيا حاجزاً إلى يوم القيامة - أعقب ذلك بذكر أحوال هذا اليوم فبين أنه عند البعث وإعادة الأرواح فى الأجسام لا تنفع الأحساب ولا يسأل القريب قريبه وهو يبصره ، وأن من رجحت حسناته على سيئاته فاز ونجا من النار ودخل الجنة ، ومن ثقلت سيئاته على حسناته خاب وهلك وأدخل النار خالداً فيها أبداً ، وكان عابس الوجه متقلص الشفتين من شدة الاحتراق ، وأنه يقال لأهل النار توبيخاً لهم على ما ارتكبوا من الكفر والآثام : أليسوا قد أرسلت إليكم الرسل ، وأنزلت عليكم الكتب؟ فيقولون بلى ، ولكننا لم ننتد لها ولم نذبحها فضلاً ، ربنا ارددنا إلى دار الدنيا ، فإن نحن عدنا فإننا ظالمون مستحقون العقوبة ، فيجيهم ربهم : امكثوا فى النار صاغرين أذلاء ولا تعودوا إلى سؤالكم هذا ، إنكم كنتم تستهزئون بعبادى المؤمنين وكنتم منهم تضحكون ، إنهم اليوم هم الفائزون جزاء صبرهم على إذا كنتم واستهزأتم بهم .

الإيضاح

(فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ) أى فإذا أعيدت الأرواح إلى الأجساد حين البعث والنشور ، لا تنفعهم الأنساب ، لأن التعاطف يزول ، والود

يخفى ، لاستيلاء الدهشة والخيرة عليهم واشتغال كل امرئ بنفسه كما جاء في قوله :
 « يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ » .

(ولا يتساءلون) أى ولا يسأل القريب قريبه وهو يبصره ، لاشتغاله بأسر
 نفسه كما قال : « وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً » وما جاء في بعض الآيات من إثبات
 التساؤل بينهم كقوله : « فَأَقْبَلِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ » فإنما هو عند
 القرار في الجنة والقرار في النار .

ثم شرع يبين أحوال السعداء وأحوال الأشقياء حينئذ فقال :
 (فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون) أى فمن رجحت موازينات أخلاقه
 وأعماله فأولئك هم الفاترون بكل مطلوب ، والحائزون لكل مرغوب .
 (ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم) أى ومن ثقلت سيئاته على
 حسناته فأولئك الذين خابوا وآبوا بالصفقة الخاسرة ، إذ هم دسوا أنفسهم باسترسالهم
 في الشهوات وفعل الموبقات .

(في جهنم خالدون) أى وما لهم أن يمكثوا في جهنم لا يخرجون منها أبدا .
 ثم وصف حال النار وحالهم فيها فقال :
 (تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ) أى تحرق النار وجوههم وهم فيها
 متقلصو الشفاة من أثر ذلك التلفح .

وإنما خص الوجوه من بين باقى الأعضاء ، لأنها أشرفها ، فذكر ما ينوبها
 من ألم ويلحقها من أذى يكون أزجر عن المعاصى التى تصل بهم إلى النار .
 أخرج ابن مردويه عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله
 صلى الله عليه وسلم فى قول الله تعالى (تلفح وجوههم النار) تلفحهم لفحة تسيل لحومهم
 على أعقابهم .

ثم ذكر ما يقال لهم حينئذ توبيخا وتقريرا وتذكيرا لما به حق عليهم العذاب
 (ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون) أى قد أرسلت إليكم الرسل

وأُنزِلت عليكم الكتب وأُنزِلت عنكم الشبه ، ولم يبق لكم حجة كما قال : « لِنَلَّا
يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ » وقال : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ
رَسُولًا » فكذبتم بها وأعرضتم عنها وأذيتم من جاء بها .

ونحو الآية قوله : « كَلِمَاتٍ أَلْقَى فِيهَا فَوْحٌ سَاءٌ لَّهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمٌ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ
قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ » .
ثم ذكر جوابهم عن ذلك فقال .

(قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين) أى قالوا قد قامت علينا
الحجة ولم نقد لها لسوء استعدادنا وتغلب شهواتنا ، ولما دسنا به أنفسنا من
الآثام والمعاصي ، ومن ثم ضللنا طريق الهدى ولم نتبع الحق .

ونحو الآية قوله : « فَأَعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ » .
والخلاصة — إنا كنا نعرف الحق ولكن العادة وخشية الناس ملكت علينا
أمرنا فلم نقدر على الخلاص مما نحن فيه ، وما مثلنا إلا مثل شاربي الخمر والتبغ
والمولعين بحب الكبرياء والعظمة والمغرمين بالإسراف ، فإنهم يعرفون أضرارها
ثم لا يجدون سبيلا إلى تركها ولا للبعد عنها .

وبعدئذ حكى دعاءهم ربهم أن يخرجهم منها: وقولهم فإن عدنا كنا ظالمين فقال :
(ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون) أى قالوا ربنا أخرجنا من النار
وارددنا إلى الدنيا ، فإن عدنا إلى مثل ما سلف منا من الشرور والآثام كنا ظالمين
لأنفسنا جديرين بالعقوبة .

ثم ذكر ما أجبوا به عن طلبهم هذا فقال :

(قال اخسئوا فيها ولا تكلمون) أى قال امكثوا فيها أدلاء صاغرين واسكتوا
ولا تعودوا إلى مثل سؤالكم هذا ، فإنه لا رجعة لكم إلى الدنيا ، وإنما يكلمنى من
سمت نفسه إلى عالم الأرواح ، ولبس رداء الخوف والحشية من ربه ، واحتقر الدنيا
وشهواتها وعزف عنها لما يرجوه من ربه من ثواب عظيم ونعيم مقيم .

ثم بين السبب فيما نالهم من العذاب فقال :

(إنه كان فريق من عبادى يقولون : ربنا آمننا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير
الراحمين) أى إن فريقا من عبادى ممن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فى الدنيا
يقولون : ربنا آمننا بك وبرسلك وبما جاءوا به من لدنك ، فاسترزلاتنا ، وآمن
روعاتنا ، ولا تخزنا يوم العرض ، ولا تعذبنا بعذابك ، فإنك أرحم من رحم
أهل البلاء .

(فالتخذتمهم سخريا حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون) أى فتشاغلتم
بهم ساخرين منهم ودأبتم على هذا حتى نسيتم ذكرى ولم تخافوا عقابى ، وكنتم
تضحكون منهم استهزاء بهم .

والخلاصة — إنكم أضفتم إلى سيئاتكم ، الاستهزاء بمن يفعلون الحسنات ،
ويتقربون إلى رب الأرض والسموات ، روى أنها نزلت فى كفار قريش وقد كانوا
يستهزئون بالفقراء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كبلال وعمار وصهيب .
ونحو الآية قوله : «إِنَّ الَّذِينَ أُجْرِمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ . وَإِذَا
مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَرُونَ» .

ثم ذكر ما جازى به أولئك المستضعفين فقال :

(إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الغائثون) أى إني جزيتهم بصبرهم
على الأذى والسخرية بهم — بالفوز بالنعم المقيم .
والخلاصة — إنهم صبروا فجزوا أحسن الجزاء .

قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا
أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ
كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا

لَا تُرْجِعُون (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ
الْكُرْسِيِّ (١١٦) وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا
حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (١١٧) وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ
وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١١٨) .

شرح المفردات

اللبث: الإقامة ، العاديين: الحفظة العادين لأعمال العباد وأعمارهم ، والعبث: ما خلا
من الفائدة ؛ الحق: أى الثابت الذى لا يبدل ولا يزول ملكه ، والعرش: هو مركز
تدبير العالم ، ووصفه بالكريم لشرفه ، وكل ما شرف فى جنسه يوصف بالكرم كما
فى قوله: «وَزَرَعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ» وقوله: «وَقُلْ كَلِمًا قَوْلًا كَرِيمًا» يدعو: يعبد ،
حسابه: أى جزاؤه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر إنكارهم للبعث وأنهم لا يعترفون بحياة إلا ما كان فى هذه الدنيا
وأنه بعد الفناء لا حياة ولا إعادة - ذكر هنا أنهم بعد أن يستمروا فى النار ويوقنوا
أنهم مخلدون فيها أبداً ، يسألون سؤال تفرغ وتوبيخ عن مدة لبثهم فى الأرض ،
ليستبين لهم أن ما ظنوه أمداً طويلاً يسير بالنسبة إلى ما أنكروه ، وحينئذ يزدادون
خسرة وألماً على ما كانوا يعتقدون فى الدنيا حين رأوا خلاف ما ظنوا ، ثم بين
بعدئذ ما هو كالدليل على وجوده وهو تمييز المطيع من العاصى ، ولولاه لكان خلق
العالم عبثاً ، تنزه ربنا عن ذلك . ثم أتبع هذا بالرد على من أشرك معه غيره
وأنذره بالعذاب الأليم ، ثم أمر رسوله أن يطلب منه غفران الذنوب وأن يثنى عليه
بما هو أهله .

الإيضاح

(قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين ؟) أى قال الملك المأمور بسؤالهم :
كم لبثتم في الأرض أحياء ؟

(قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم) فقد نسى هؤلاء الأشقياء مدة لبثهم في الدنيا
لعظيم ما هم فيه من البلاء والعذاب ، وقصّر عندهم الأمد الذى مكثوه فيها ، ما حل بهم
من نقمة الله حتى حسبوا أنهم لم يمكثوا إلا يوما أو بعض يوم ، ولعل بعضهم يكون
قد أقام بها الزمان الطويل والسنين الكثيرة .

(فاسأل العادين) أى فاسأل الحفظة العارفين لأعمال العباد وأعمارهم
كما روى ذلك جماعة عن مجاهد .

(قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون) أى قال لهم الملك : ما لبثتم
إلا زمنا يسيرا ، ولو كنتم تعلمون شيئا من العلم لعلمتكم على مقتضى ذلك ، ولما صدر
منكم ما أوجب خلودكم في النار ، ولما قلنا لكم : اخسئوا فيها ولا تكلمون .

روى مرفوعا « أن الله تعالى إذا أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار قال :
يا أهل الجنة كم لبثتم في الأرض عدد سنين؟ قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم ، قال : لنعم
ما أنجزتم في يوم أو بعض يوم رحمتى ورضوانى وجنتى ، أمكثوا فيها خالدين مخلدين ،
ثم يقول يا أهل النار : كم لبثتم في الأرض عدد سنين؟ قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم ،
فيقول بئسما أنجزتم في يوم أو بعض يوم نارى وسخطى ، أمكثوا فيها خالدين مخلدين » .
ثم زاد في توبيخهم على تماديهم في الغفلة وتركهم النظر الصحيح فيما يرشد إلى
حقيقة البعث والقيامة فقال :

(أخسئتم أما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون) أى أظننتم أيها الأشقياء
أنا إنما خلقناكم إذ خلقناكم لعبا وباطلا؟ كلا ، بل خلقناكم لنهذبكم ونعلمكم ، لترتقوا
إلى عالم أرقى مما أنتم فيه ، كما خلتكم أنكم لا ترجعون إلينا للحساب والجزاء .

وفي هذا إشارة إلى أن الحكمة تقتضى تكليفهم وبعضهم لمجازاتهم على ما قدموا من عمل وأسلفوا من سعى فى الحياة الدنيا .

ثم نزه الله نفسه عما يصفه به المشركون فقال :

(فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم) أى تنزه ربنا ذو الملك والملسكوت الثابت الذى لا يزول والذى ليس هناك معبود سواه وهو ذو العرش الكريم الذى يُدبر فيه نظام الكون علويه وسفليه وجميع ما خلق عن أن يخلق الخلق عبثاً ، وأن تخلو أفعاله عن الحكم والمقاصد الحميدة ، وأن يكون له ولد أو شريك .

وبعد أن ذكر أنه الملك الحق الذى لا إله إلا هو أتبعه ببيان أن من ادعى أن فى الكون إلها سواه فقد ادعى باطلا وركب شططا فقال :

(ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه) أى ومن يعبد مع ذلك المعبود الذى لا تصالح العبادة إلا له ، معبودا آخر لا بينة له به ، فجزاؤه عند ربه وهو موفيه بما يستحقه من جزاء وعقاب .

وفى ذلك من شديد التوبيخ والتقريع ما لا يخفى .

(إنه لا يفلح الكافرون) أى إنه لا يسعد أهل الشرك ولا ينجيهم من العذاب .

وما أنظف افتتاح السورة بفلاح المؤمنين وختمها بخيبة الكافرين وعدم فوزهم بما يؤملون !.

وبعد أن شرح أحوال الكافرين وجهلهم فى الدنيا وعذابهم فى الآخرة ، أمر

رسوله بالانتفاع إليه والالتجاء إلى غفرانه ورحمته بقوله :

(وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين) أى وقل أيها الرسول : رب

استر على ذنوبى بعفوك عنها ، وارحمنى بقبول توبتى وترك عقابى على ما اجترحت

من آثام وأوزار ، وأنت ربنا خير من رحم ذا ذنب قبل توبته وتجاوز عن عقابه

إِنَّكَ رَبُّنَا خَيْرُ غَافِرٍ ، وَإِنَّكَ الْمَتَوَلَّى لِلسَّرَائِرِ ، وَالْمَرْجُوُّ لِإِصْلَاحِ الضَّائِرِ ، وَصَلَّى رَبُّنَا
عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ .

أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ حِبَّانٍ فِي جَمَاعَةٍ عَنْ أَبِي بَكْرٍ أَنَّهُ قَالَ
يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَّمَنِي دَعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي قَالَ : « قُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا
كَثِيرًا ، وَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ ، فَاعْفُرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي إِنَّكَ
أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » .

خلاصة ما تضمنته السورة

من الحكم والأحكام والآداب

(١) فوز المؤمنين ذوى الصفات الفاضلة بالفوز والفلاح بدخول الجنات
خالدين فيها أبداً .

(٢) ذكر حال النشأة الأولى .

(٣) خلق السموات السبع وإنزال المطر من السماء وإنشاء الجنات من
النخيل والأعناب وذكر منافع الحيوان للإنسان .

(٤) قصص بعض الأنبياء كَنُوحٍ وَشُعَيْبٍ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَعِيسَى عَلَيْهِمُ
السَّلَامُ ، ثُمَّ أَمْرُهُمْ جَمِيعًا بِأَكْلِ الطَّيِّبَاتِ وَعَمَلِ الصَّالِحَاتِ .

(٥) لا يكلف الله عباده إلا بما فيه يسر وسجاجة .

(٦) وصف ما يلقاه الكافرون من النكال والوبال يوم القيامة وتأنيبهم على
عدم الإيمان بالرسول ، وتفنيدها المعاذير التي اعتذروا بها .

(٧) ذكر ما أنعم به على عباده من الخواص والمشاعر .

(٨) إنكار المشركين للبعث والجزاء والحجاج على إثبات ذلك .

(٩) النعي على من أثبت الولد والشريك لله .

(١٠) دعاء النبي صلى الله عليه وسلم ربه ألا يجعله في القوم الظالمين حين

عذابهم .

- (١١) تعلم نبيه صلى الله عليه وسلم الأدب في معاملة الناس ، وأمره أن يدعوه
بدفع همزات الشياطين عنه .
- (١٢) طالب الكفار العودة إلى الدنيا حين رؤية العذاب ، لعلهم إذا عادوا
عملوا صالحا .
- (١٣) وصف أهوال يوم القيامة و بيان مافيها من الشدائد .
- (١٤) أوصاف السعداء والأشقياء .
- (١٥) تأنيب الكافرين على طلبهم العودة إلى الدنيا وزجرهم على هذا الطلب .
- (١٦) سؤال المشركين عن مدة لبثهم في الدنيا و بيان أنهم ينسون ذلك .
- (١٧) النعمى على من عبد مع الله إلها آخر .
- وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمى وعلى آله وصحبه وسلم .

سورة النور

هي مدنية وآيها أربع وستون .
ووجه اتصالها بما قبلها :

(١) إنه قال في السورة السالفة « وَالَّذِينَ هُمْ لِغُرُوبِهِمْ حَافِظُونَ » وذَكَرَ هُنَا أَحْكَامَ مِنْ لَمْ يَحْفَظْ فَرْجَهُ مِنَ الزَّانِيَةِ وَالزَّانِي وَمَا اتَّصَلَ بِذَلِكَ مِنْ شَأْنِ الْقَذْفِ وَقِصَّةِ الْإِفْكِ وَالْأَمْرِ بِغَضِّ الْبَصَرِ الَّذِي هُوَ دَاعِيَةُ الزَّانَا ، وَأَمْرٍ مِنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى النِّكَاحِ بِالِاسْتِعْفَافِ ، وَالنَّهْيِ عَنِ إِكْرَاهِ الْفَتَيَاتِ عَلَى الزَّانَا .

(٢) إنه تعالى لما قال فيما سلف إنه لم يخلق الخلق عبثاً بل للأمر والنهي - ذَكَرَ هُنَا جُمْلَةً مِنَ الْأَوْامِرِ وَالنَّوَاحِي .

روى عن مجاهد أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « علموا رجالكم سورة المائدة ، وعلموا نساءكم سورة النور » وعن حارث بن مضر روى الله عنه قال : كتب إلينا عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن تعلموا سورة النساء والأحزاب والنور .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١)

شرح المفردات

أَنْزَلْنَاهَا : أى أعطيناها الرسول كما يقول العبد إذا كلم سيده : رفعت إليه حاجتى ، والفرض : التقدير كما قال : « فَنَنْصِفُ مَا فَرَضْتُمْ » وقال « إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ أَنْ لَرَآدُكَ إِلَى مَعَادٍ » والمراد هنا تقدير ما فيها من الحدود والأحكام على أتم وجه ، بينات : أى واضحات الدلالة على ما فيها من الأحكام ، ولعلّ هنا يراد بها الإعداد والتهيئة ، تذكرون : أى تتذكرون وتتعتظون .

الإيضاح

امتن سبحانه على عباده بما أنزل عليهم في هذه السورة من الفرائض والأحكام وفضله لهم من أدلة التوحيد وبياناته الواضحة التي لا تقبل جدلاً ليمدحهم بذلك لأن يتعظوا ويعملوا بما جاء فيها مما فيه سعادتهم في دنياهم وآخرتهم وفيه صلاحهم ، فإن في حفظ الفروج صيانة للأنسب واطمئناناً على سلامتها مما يشوبها ، كما أن فيه أمناً من حصول الضغائن والأحقاد التي قد تجر إلى القتل وارتكاب أفظع الجرائم بين الأفراد ، وأمناً على الصحة والبعد من الأمراض التي قد تودي بحياة المرء وتوقعه في أشد المصائب وأعظم ألوان البلاء .

كما جاء فيها توثيق روابط المودة بين أفراد المجتمع ، ففيها نظام دخول البيوت للزوار ، وفيها حفظ الأسنة وصونها عن الفلوع في الأعراض بما لا ينبغي أن يقال حتى لا ينتشر الفحش بين الناس ، وفيها تحذير للعباد من ذلك « إِنَّ الَّذِينَ يُجْمُونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » .

والخلاصة — إنه تعالى ذكر في أول السورة أنواعاً من الأحكام والحدود الشرعية . وفي آخرها الدلائل على وحدانيته وكامل قدرته ، فأشار إلى الأولى بقوله (وفرضناها) وإلى الثانية بقوله : (وأنزلنا فيها آيات بينات) .

والفائدة في كل هذا اتقاء الحارم والبعد عنها ومعرفة الله المعرفة التي تجعل المرء يخضع لجلاله وعظيم سلطانه ، ويشعر بأنه محاسب على كل ما يعمل من عمل قلّ أو أكثر ، فإذا تم له ذلك صلحت نظم الفرد ونظم المجتمع وسادت السكينة والطمأنينة بين الناس .

الرَّانِيَةُ وَالرَّانِي فَأَجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) .

عقوبة الزنا الدنيوية

الزاني والزانية إما أن يكونا محصنين : أى متزوجين ، أو غير محصنين : أى غير متزوجين .

عقوبة المحصنين

إن كان الزانيان محصنين واستوفيا الشروط الآتية ، وهى أن يكونا بالغين عاقلين حريين مسلمين متزوجين بعقد نكاح صحيح - وجب رجعهما : أى رميهما بالحجارة حتى يموتا ، ويكون ذلك فى حفل عام للمسلمين ليعتبر بهما غيرهما .

وقد ثبت هذا بالسنة المتواترة ورواه الثقات عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد رواه أبو بكر وعمر وعلي وجابر بن عبد الله وأبو سعيد الخدرى وأبو هريرة وزيد ابن خالد وبريدة الأسلمى فى آخرين من الصحابة ، وجاء فى رواياتهم أن رجلا من الصحابة يسمى ماعزا أقر بالزنا فرجم ، وأن امرأتين من بنى نخم وبني غامد أقرتا بالزنا فرجمتا على مشهد من الناس ومرأى منهم .

عقوبة غير المحصنين

إن كان الزانيان غير محصنين فالعقوبة مائة جلدة بحضرة جمع من المسلمين كما بينته الآية ليفتح أمرها كما تقدم ذلك .

طريق إثبات الزنا

يثبت الزنا بأحد أمور ثلاثة :

(١) الإقرار به وهذا هو الطريق الذى ثبت به الزنا فى الإسلام ، وبه أوقع النبي

صلى الله عليه وسلم وصحابته العقوبة على من زنى .

(٢) الحبل للمرأة بلا زوج معروف لها .

(٣) شهادة أربعة من الشهود يرونهما وهما ملتبسان بالجريمة .

عقوبة الزنا الأخروية

تقدم أن بيننا المساوي والأضرار التي تنشأ من الزنا للأفراد والجماعات في الدنيا ،
وعليتنا أن نذكر هنا حكمه الأخرى فنقول : اتفقت الأمة على أن الزنا من أكبر
الآثام ، وأنه من الذنوب التي شدد الدين في تركها ، وأغلظ في العقوبة على فعلها ،
وجاء فيه من النصوص ما لم يأت في غيره مما حرم الله ، فقد قرن بالشرك في قوله :
« وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ
إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يُزْنُونَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا » .

وروى عن حذيفة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يا معشر الناس اتقوا
الزنا فإن فيه ست خصال ، ثلاث في الدنيا وثلاث في الآخرة ، أما التي في الدنيا
فيذهب البهاء ويورث الفقر وينقص العمر ، وأما التي في الآخرة فسخط الله سبحانه
وتعالى وسوء الحساب وعذاب النار » .

وعن عبد الله بن مسعود قال : قلت يا رسول الله ، أي الذنب أعظم عند الله ؟
قال أن تجعل لله نداً وهو خلقك ، قلت ثم أي ؟ قال وأن تقتل ولدك خشية أن
يأكل معك ، قلت ثم أي ؟ قال وأن تزني بحليلة جارك ، فأنزل الله تصديقها :
« وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ
وَلَا يُزْنُونَ » .

الإيضاح

(الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) أي من زنى من الرجال
أوزنت من النساء وهما حران بالغان عاقلان غير محصنين بزوجين فاجلدوا كلا منهما
مائة جلدة عقوبة له على ما أتى من معصية الله .
(ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله) أي ولا تأخذكم بهما رحمة ورقة في حكم

الله ، فتمطلوا الحدود أو تخففوا الضرب ، بل الواجب عليكم أن تتصلبوا في دين الله ولا يأخذكم اللين والهواذة في استيفاء الحدود ، وكفى برسول الله أسوة في ذلك إذ يقول : « لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها » .

(إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) أى إن كنتم تصدقون بالله ربكم وأنكم مبعوثون للحشر ومجازون بالثواب والعقاب . فإن من كان مصدقا بذلك لا يخالف أمر الله ونهيه خوف عقابه على معاصيه .

وفي هذا تهيبج وإغضاب لتنفيذ حدود الله وإقامة شريعته .
(وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) فإني إذا جلدا بمحضر من الناس كان ذلك أبلغ في زجرهما وأنجع في ردهما والزيادة في تأنيبهما على ما فعلا .
والطائفة : الأربعة فصاعدا كما روى عن ابن عباس ، وعن الحسن : عشرة فصاعدا .

الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ، وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ، وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣) .

المعنى الجملى

قال مجاهد وعطاء : قدم المهاجرون المدينة وفيهم فقراء ليس لهم أموال ولا عشاء وبالمدينة نساء بغايا يكرين أنفسهن وهن يومئذ أخصب أهل المدينة عيشا ، ولكل منهن علامة على بابها للتعريف عن نفسها والإعلان عن أمرها ، وكان لا يدخل عليهن إلا زانٍ أو مشرك ، فرغب في كسبهن ناس من فقراء المسلمين وقالوا نتزوج بهن إلى أن يغنيننا الله عنهن ، فاستأذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية .

الإيضاح

(الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها إلا زانٍ أو مشرك) أى إن الفاسق الفاجر الذى من شأنه الزنا والفسق لا يرغب فى نكاح الصوالح من النساء

وإنما يرغب في فاسقة خبيثة أو في مشرقة مثلها ، والفاسقة المستهتره لا يرغب في نكاحها الصالحون من الرجال ، بل ينفرون منها ، وإنما يرغب فيها من هو من جنسها من النسقة ، ولقد قالوا في أمثالهم : إن الطيور على أشكالها تقع .
ولا شك أن هذا حكم الأعم الأغلب كما يقال : لا يفعل الخير إلا الرجل التقى ، وقد يفعل الخير من ليس بتقى ، فكذا هذا فإن الزانى قد ينكح المؤمنة العفيفة ، والزانية قد ينكحها المؤمن العفيف .

(وحرّم ذلك على المؤمنين) أى إن نكاح المؤمن المتسم بالصلاح ، الزانية ورغبته فيها واندماجه في سلك الفسقة المشهورين بالزنا - محرم عليه لما فيه من التشبه بالفساق ومن حضور مواضع الفسق والفجور التي قد تسبب له سوء القالة واغتياب الناس له ، وكم في مجالسة الفساق من التعرض لاقتراف الآثام ، فما بالك بمزاوجة الزواني والفجار ، وجاء في الخبر « من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه » .

حكم قذف غير الزوجة من النساء

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ
مَنْ أَيْنَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤)
إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) .

شرح المفردات

المراد بالمحصنات هنا : العفيفات الحرائر البالغات العاقلات المسلمات .

المعنى الجملى

بعد أن نقر سبحانه من نكاح الزانيات وإنكاح الزانين ويين أن ذلك عمل لا يليق بالمؤمنين الذين أشربت قلوبهم حب الإيمان والتصديق برسوله - نهى هنا

عن رمى المحصنات به وشدد في عقوبته الدنيوية والأخروية ، فجعل عقوبته في الدنيا الجلد وألا تقبل له شهادة أبدا ، فيكون ساقط الاعتبار في نظر الناس مانع القول لا تسمع له كلمة ، وجعل عقوبته في الآخرة العذاب المؤلم الموجع إلا إذا تاب إلى الله وأتاب وأصلح أعماله فإنه يزول عنه اسم الفسوق وتقبل شهادته .

الإيضاح

(والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة)
 أى إن الذين يشتمون العفيفات من حرائر المسلمين فيرمونهن بالزنا ثم لم يأتوا على مرموهن به من ذلك بأربعة شهداء عدول يشهدون بأنهم رأوهن يفعلن ذلك - فاجلدوهم ثمانين جلدة جزاء لهم على ما فعلوا من تلم الأعراس وهتك الستر دون أن يكون ذلك بوجه الحق .

(ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا) أى ردوا شهادتهم ولا تقبلوها أبدا في أى أمر من الأمور .

ثم بين سوء حالهم عند ربهم بقوله :

(وأولئك هم الفاسقون) أى وأولئك هم الخارجون عن طاعة ربهم إذ أنهم فسقوا عن أمره وركبوا كبيرة من الكبائر باتهامهم المحصنات الغافلات المؤمنات كذبا وبهتاناً ؛ كما قال حسان يمدح أم المؤمنين عائشة :

حصان رزان ما تُرْنُ بربيبه وتصبح غرثي من لحوم القوافل^(١)

وهم إن كانوا صادقين فقد هتكوا ستر المؤمنات وأوقعوا السامعين في شك من أمرهن دون أن يكون في ذلك فائدة دينية ولا دنيوية لهم ، وقد أمرنا بستر العرض إذا لم يكن في ذلك مصلحة في الدين .

(١) حصان : عفيفة ، ووزان : حصيفة الرأي ، وترن : تتم ، وربيبه : أى شك في عرضها ، وغرثي : جائة ، والمراد أنها لا تغتاب النساء كما هو شأن المرأة .

(إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا) أى إلا الذين رجعوا عما قالوا وندموا على ما تكلموا من بعد ما اجترحوا ذلك الإثم وأصلحوا حالهم .

وقد اختلف فى هذا الاستثناء ، أيعود إلى الجملة الأخيرة فترفع التوبة الفسوق فحسب ، ويبقى مردود الشهادة دائماً وإن تاب ؟ وإلى هذا ذهب من السلف القاضى شرح وسعيد بن جبير وأبو حنيفة ، أم يعود إلى الجملتين الثانية والثالثة ، وإلى هذا ذهب سعيد بن المسيب وجماعة من السلف ، وهو رأى مالك والشافعى وأحمد ، وعليه فتقبل شهادته ويرتفع عنه حكم الفسوق .

ثم ذكر علة قبول التوبة فقال :

(فإن الله غفور رحيم) أى فإن الله ستار لذنوبهم التى أقدموا عليها بعد أن تابوا منها ، رحيم بهم فيزيل عنهم ذلك العار الذى لحقهم بعدم قبول شهادتهم ووسمهم بفسوق الذى وصفوا به .

حكم قذف الرجل زوجته

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ مِنَ الْصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠) .

شرح المفردات

يرمون : أى يقذفونهم بالريبة وتهمة الزنا ، ولعنة الله : الطرد من رحمته ، ويدرأ : أى يدفع ، والعذاب : الحد ، وغضب الله : سخطه والبعد من فضله وإحسانه .

المعنى الجملى

بعد أن بيّن سبحانه حكم قاذف الأجنبية بالزنا وذكر أنه لا يعفى القاذف عن العقوبة إلا إذا أتى بأربعة شهداء - ذكر هنا ما هو في حكم الاستثناء من ذلك ، وهو قذف الزوجات ، فإن الزوج القاذف يعفى من الحد إذا شهد الشهادات المبيّنة في الآية ، لأن في تكليف الزوج إحضار الشهود إغناطاً له وإحراجاً ، ولما يلحقه من الغيرة على أهله ثم كظم الغيظ ، إذ لا يجد مخلصاً من ضيقه .

روى عن ابن عباس أنه قال : « لما نزل قوله تعالى : والذين يرمون المحصنات الخ قال عاصم بن عدى الأنصارى : إن دخل منا رجل بيته فوجد رجلاً على بطن امرأته فإن جاء بأربعة رجال يشهدون بذلك ، فقد قضى الرجل حاجته وخرج ، وإن قتله قتل به ، وإن قال وجدت فلانا مع تلك المرأة ضرب ، وإن سكت سكت على غيظ ، اللهم افتح .

وكان لعاصم هذا ابن عم يقال له عويمر وله امرأة يقال لها خولة بنت قيس ، فأتى عويمر عاصماً فقال : لقد رأيت شريك بن سحماء على بطن امرأتى خولة ، فاسترجع عاصم وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله ما أسرع ما ابتليت بهذا في أهل بيتى ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما ذاك ؟ قال أخبرنى عويمر ابن عمى أنه رأى شريك بن سحماء على بطن امرأته خولة ، وكان عويمر وخولة وشريك كلهم بنو عم عاصم ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم جميعاً وقال لعويمر اتقى الله فى زوجتك وابن عمك ولا تقذفها ، فقال : يارسول الله أقسم بالله إنى رأيت شريكا على بطنها وإنى ما قرأتها منذ أربعة أشهر وإنها حبلى من غيرى ، فقال لها النبى صلى الله عليه وسلم : اتقى الله ولا تخبرى إلا بما صنعت ، فقالت يارسول الله : إن عويمراً رجل غيور وإنه رأى شريكا يطيل النظر إلىّ ويتحدث فحملتة الغيرة على ما قال ، فأنزل الله هذه الآية ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم

فنودي (الصلاة جامعة) فصلى العصر ثم قال لعويمر : قم وقل أشهد بالله إن خولة لزانية وإني لمن الصادقين ، ثم قال : قل أشهد بالله إني رأيت شريكا على بطنها وإني لمن الصادقين ، ثم قال : قل أشهد بالله إنها حبلى من غيري وإني من الصادقين ثم قال : قل أشهد بالله إنها زانية وإني ماقرت بها منذ أربعة شهور وإني لمن الصادقين ثم قال : قل لعنة الله على عويمر (يعنى نفسه) إن كان من الكاذبين فيما قال ، ثم قال : اقم ، وقال لخولة : قومي فقامت وقالت أشهد بالله ما أنا بزانية وإن عويمرا زوجي لمن الكاذبين ، وقالت في الثانية : أشهد بالله ما رأى شريكا على بطنى وإنه لمن الكاذبين ، وقالت في الثالثة : إني حبلى منه ، وقالت في الرابعة أشهد بالله إنه ما رأني على فاحشة قط وإنه لمن الكاذبين ، وقالت في الخامسة : غضب الله على خولة إن كان عويمر من الصادقين في قوله ، فترق رسول الله بينهما » .

« وفي رواية عن ابن عباس : أنها حين كانت تؤدي الشهادة الخامسة قالوا إنها الموجبة التي توجب عليك العذاب فتلكأت ساعة وهمت بالاعتراف ، ثم قالت والله لا أفضح قومي فشهدت في الخامسة كما تقدم ، فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتفريق بينهما وألا يدعى ولدها الأب ، وأن لا مسكن لها عليه ولا مؤنة ، من أجل أنهما يفترقان من غير طلاق ولا وفاة » فصار هذا سنة المتلاعنين وسمى عملهما (الاعان والملاعنة) .

وفي رواية « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ابصروها فإن جاءت به أسحمة أدمع العينين عظيم الإليتين فلا أراه إلا قد صدق ، وإن جاءت به أحيمر كأنه وحرّة (سحلية) فلا أراه إلا كاذبا فجاءت به على النعت المكروه » .

الإيضاح

(والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين . والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين)

أى والأزواج الذين يقذفون زوجاتهم بالزنا ، ولم يكن لهم شهداء يشهدون لهم بصحة ما قذفوهن به من الفاحشة ، فعلى كل منهم أن يشهد أربع شهادات إنه لصادق فيما رماها به من الزنا ، والشهادة الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين فيما اتهمها به .

(ويدراً عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين . والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين) أى ويدفع عنها العقوبة بالدينوية . وهى الحد أن تحلف بالله أربعة أيمان إن زوجها الذى رماها بما رماها به من الفاحشة - لمن الكاذبين فيما قال ، والشهادة الخامسة أن غضب الله عليها إن كان زوجها صادقاً فيما اتهمها به .

وخصت الملائعة بأن تحمى بغضب الله عليها تغليظاً عليها ، لأنها هى سبب الفجور ومنبعه بخديعتها وإطاعها الرجل فى نفسها .

وبعد أن ذكر حكم الرامى للمحصنات وللأزواج بين أن فى هذا تفضلاً بعباده ورحمة بهم فقال :

(ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم) أى ولولا تفضله سبحانه عليكم ورحمته بكم وأنه قابل لتوبتكم فى كل آن وأنه حكيم فى جميع أفعاله وأحكامه التى منها ما شرعه لكم من اللعان - لفضحكم وعاجلكم بالعقوبة ولكنه ستر عليكم ودفع عنكم الحد باللعان ، إذ لو لم يشرع لكم ذلك لوجب على الزوج حد القذف مع أن قرائن الأحوال تدل على صدقه ، لأنه أعرف بحال زوجته ، وأنه لا يفتري عليها لاشتراكهما فى النضيحة ، ولو جعل شهادته موجبة لحد الزنا عليها لأهل أمرها وكثير اقتراء الزوج عليها لضغينة قد تكون فى نفسه من أهلها ، وفى كل هذا خروج من سبق الحكمة والفضل والرحمة ، ومن ثم جعل شهادات كل منهما مع الجرم بكذب أحدهما دائرة عنه العقوبة الدينوية ، وإن كان قد ابتلى الكاذب منهما فى تضعيف شهادته بأشد ما درأه عن نفسه وهو العقاب الأخرى .

حديث الإفك على أم المؤمنين عائشة

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ (١٢) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِمْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَاءِ قَالُوا لَيْتَ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ مَا كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَالرَّسُولِ لَعَنَ اللَّهُ الْكَاذِبِينَ (١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسِّنْتِ كُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا ، سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧) وَيَسِّنُّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (٢٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ ، وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) وَلَا يَأْتَلِ أُولُو

الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْمَفُوا وَلِيَصْفَحُوا ، أَلَا تَجِبُونَ أَنْ يَعْقِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ
غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢) .

شرح المفردات

الإفك : أبلغ الكذب والافتراء ، والعصبة : الجماعة ، وكثر إطلاقها على العشرة
فما فوقها إلى الأربعين ، وقد عدت عائشة منها المنافق عبد الله بن أبي بن سلول وقد
تولى كبره وحننة بنت جحش أخت أم المؤمنين زينب رضى الله عنها وزوج طلحة
ابن عبيد الله ومسطح بن أثانة وحسان بن ثابت ، كبره (بكسر الكاف وضمها
وسكون الباء) أى معظمه فقد كان يجمعه ويذمعه ويشمعه ، (لولا) كناية بمعنى هلا
تفيد الحث على فعل ما بعدها ، مبين : أى ظاهر مكشوف ، أفضتم : أى خضتم فى حديث
الإفك ، تلقونه : أى تتلقونه ويأخذه بعضكم من بعض ، يقال تلقى القول وتلقنه
وتلقفه ومنه « فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ » سبحانه : تعجب ممن تقوه به ،
بهتان : أى كذب يبهت سامعه ويحيره لمطاعته ، يعظكم : أى ينصحكم ، تشيع : أى
تنتشر ، الفاحشة : الخصلة المفرطة فى القبح وهى الزنا ، وخطوات واحدها خطوة
(بالضم) ما بين القدمين من المسافة ، ويراد بها نزغات الشيطان ووساوسه ، والمنكر :
ما تنكره النفوس فتتفر منه ، زكا : أى طهر من دنس الذنوب ، ولا يأتل : أى
لا يحفل ، الفضل : الزيادة فى الدين ، السعة : الغنى .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه حكم من قذف الأجنبيات وحكم من قذف الزوجات -
ذكر فى هذه الآيات العشر براءة عائشة أم المؤمنين مما رماها به أهل الإفك والبهتان
من المنافقين ، صيانة عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومجل القصص ما رواه البخاري وغيره عن عروة بن الزبير عن خالته أم المؤمنين عائشة قالت .

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفرا أفرع بين نسائه فأيتهن خرجت قرعتها استصحابها ، فأفرع بيننا في غزوة غزاها فخرج سهمي (نصيبي) فخرجت معه بعد نزول آية الحجاب فحُملت في هودج فسرنا حتى إذا قلنا ودنونا من المدينة نزلنا منزلا ثم نودي بالرحيل ، فقمتم ومشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي ، فلمست صدرى فإذا عقدي من جِرْع ظفَارٍ قد انقطع فرجعت فالتسته فخبسني ابتعاؤه ، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بي فاحتملوا هودجى فرحلوه على بعيرى وهم يحسبون أنى فيه لخفتى فلم يستنكروا خفة الهودج وذهبوا بالبعير ووجدت عقدى بعد ما استمر الجيش ، فحُمت منازلهم وليس فيها داع ولا مجيب ، فتيمنت منزلى وطلنت أنهم سيفقدونى ويعودون فى طلبى ، فبينما أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عينى فمت ، وكان صفوان بن المعطل السامى من وراء الجيش ، فلما رأى عرفنى فاستيقظت باسترجاعه ، فخمرت وجهى بجلبابى ووالله ما تكلمت بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حين أناخ راحلته فوطئ على يديها ، فقمتم إليها فركبتها وانطلق يقود بالراحلة حتى أتينا الجيش بعد أن نزلوا فى نحر الظهيرة ، وافتقدنى الناس حين نزلوا وماج القوم فى ذكرى ، فبينما الناس كذلك إذ هجمت عليهم فخاصوا فى حديثى فهلك من هلك ، وكان الذى تولى الإفك عبد الله بن أبى ، فقدمنا المدينة فاشتبكيت حين قدمت شهرا والناس يفيضون فى قول أصحاب الإفك لا أشعر بشىء من ذلك ، ويريدنى فى وجعى أنى لا أعرف من رسول الله اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى ، إنما يدخل فيسلم ثم يقول : كيف تيكم ؟ فذلك يريدنى ولا أشعر بالبشر ، حتى خرجت بعد ما نهت ، وخرجت مع أم مسطح قبل (المناصع) وهو متبرزنا ولا نخرج إلا ليلا إلى ليل قبل أن تتخذ الكنف قريبا من بيوتنا ، وأمرنا أمر العرب الأول فى التنزه فى البرية ، وكما تتأذى بالكنف أن

أن تتخذها عند بيوتنا ، فانطلقت أنا وأم مسطح (هي ابنة أبي رهم بن المطلب بن عبد المطلب بن عبد مناف ، وأما ابنة صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق) قبل يتي حين فرغنا من شأننا ، فعمرت أم مسطح في مرطها فقالت : تعس مسطح ، فقالت أتسبين رجلا قد شهد بدرا ؟ فقالت : أي هتكتك أو لم تسمعي ما قال ؟ قلت : وما قال ؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضا على مرضي ، فلما رجعت إلى منزلي ودخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال كيف تيمك ؟ قلت أتأذن لي أن آتي أبوي ؟ قال نعم ، قالت وأنا حينئذ أريد أن أستثبت الخبر من قباهما ، فجئت أبوي فقلت لأمي : أي أمتك ، ماذا يتحدث الناس به ؟ فقالت : أي بنية هونتي عليك ، فوالله لعلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها : قالت قلت سبحان الله ، أو قد تحدث الناس بهذا وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت نعم ، قالت فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ؟ ثم أصبحت فدخل علي أبو بكر وأنا أبكي ، فقال لأمي ما يبكيها ؟ قالت : لم تكن علمت ما قيل لها ، فأكب يبكي ، فبكي ساعة ثم قال : اسكتي يا بنية ، فبكيت يومئذ ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ، ثم بكيت ليلي المقبل لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم حتى ظن أبواي أن البكاء سيفنق كبدي ، ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبت الوحي يستشيرهما في فراق أهله ، قالت : فأما أسامة فأشار علي رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي في نفسه من الود ، فقال : يا رسول الله هم أهلك ولا نعلم إلا خيرا ، وأما علي فقال : لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير ، وإن تسأل الجارية (يعني برة) تصدقك ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم برة فقال : هل رأيت من شيء يريبك من عائشة ؟ قالت : والذي بعثك بالحق ما رأيت عليها أسرا أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عيني أهلها فتأتي الدواجن فتأكله ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه فاستعذر من

عبد الله بن أبي قتال وهو على المنبر : يا معشر المساهين من يعذرنى من رجل قد بلغنى أذاه فى أهلى ؟ فوالله ما علمت على أهلى إلا خيرا ، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا ، وما كان يدخل على أهلى إلا معى ، فقام سعد بن معاذ الأنصارى رضى الله عنه فقال : أنا أعذرك يا رسول الله إن كان من الأوس ضربنا عنقه ، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك ، فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلا صالحا ولكن احتملته الحمية ، فقال أى سعد بن معاذ : لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ، ولو كان من أهلك ما أحببت أن يقتل ، فقام أسيد بن خضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة ، كذبت لعمر الله لثقتنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين ، فتناور الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر ، فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا ، ثم أتانى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا فى بيت أبوى ، فبينما هما جالسان عندى وأنا أبكى استأذنت على امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكى معى ، قالت فبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم جلس عندى ولم يجلس عندى منذ قيل ما قيل ، وقد لبث شهرا لا يوحى إليه فى شأنى بشىء ، قالت فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس ثم قال : أما بعد يا عائشة فإنه قد بلغنى عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألمت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه ، فاما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه دمة ، قلت لأبى : أجب عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال ، قال والله ما أدرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت لأمى : أجبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت والله ما أدرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن ، إنى والله قد عرفت أن قد سمعتم بهذا حتى استقر فى أنفسكم حتى كدتم أن تصدقوا به ، فإن قلت لكم إنى بريئة (والله يعلم أنى بريئة) لاتصدقونى

بذلك ، واثن اعترفت لكم بأمر الله يعلم أنى منه بريئة لتصدقنى ، وإنى والله لا أجد لى ولكم مثالا إلا كما قال يوسف : « قَصَبٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ » ثم توليت فاضطجعت على فراشى وأنا والله أعلم أنى بريئة وأن الله سيرثنى ببراءتى ، ولكنى والله ما كنت أظن أن ينزل فى شأنى وحى يتلى ، ولشأنى كان أحقر فى نفسى من أن يتكلم الله فى بأمر يتلى ، ولكنى كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام رؤيا يبرئنى الله بها ، قالت والله ما رام رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه ولا خرج من البيت أحد حتى أنزل الله على نبيه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحى حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق فى اليوم الشاتى من ثقل القول الذى ينزل عليه ، قالت : فلما سرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك ، كان أول كلمة تكلم بها أن قال : أبشرى يا عائشة ، إن الله قد برأك ، فقالت لى أمى قومى إليه ، فقلت والله لا أقوم إليه ولا أحد إلا الله ، هو الذى أنزل براءتى ، فأنزل الله : « إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ » العشر الآيات كلها ، فلما أنزل الله هذا فى براءتى قال أبو بكر وكان ينفق على مسطح لعرايته وفقره : والله لا أنفق عليه شيئا أبدا بعد الذى قال لعائشة ، فأنزل الله : « وَلَا يَأْتِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ - إِلَى قَوْلِهِ - غَقُورٌ رَّحِيمٌ » فقال أبو بكر : إنى لأحب أن يغفر الله لى ، فرجع إلى مسطح النفقة التى كان ينفق عليه ، وقال لا أنزعها منه أبدا .

قالت عائشة : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل زينب بنت جحش عن أمرى وما سمعت ، فقالت يا رسول الله : أحمى سمعى وبصرى ، والله ما رأيت إلا خيرا .

قالت عائشة : وهى التى كانت تسامينى ، فعصمها الله بالورع ، وطفقت أختها حنّة تحارب لها ، فهالكت فيمن هالك .

وكان مسروق إذا حدث عن عائشة يقول : حدثتني الصديقة بنت الصديق
حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم المبرأة من السماء .

الإيضاح

(إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم) أى إن الذين جاءوا بالكذب والبهتان
جماعة منكم أيها المؤمنون تعاونوا وأجمعوا أمرهم على إعلائه وإذاعته بين الناس لمقاصد
لهم أخفوها والله عليم بما يفعلون .

وفى التعبير (بعصبة) بيان أن هؤلاء شردمة قليلون وأنهم هم الذين ينشرونه ،
لا أنهم عدد كثير من الناس .

(لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم) أى لا تظنوا أن فيه فتنة وشرا ،
بل هو خير لكم لا كتسابكم به الثواب العظيم ، لأنه كان بلاء مبينا ومحنة ظاهرة ،
وظهور كرامتكم على الله بإزال قرآن يتلى مدى الدهر فى براءتكم وتعظيم شأنكم ،
ولما فيه من تهويل الوعيد لمن تكلم فيكم والثناء على من ظن بكم خيرا ، إلى نحو
ذلك من القوائد الدينية والآداب التى لا تخفى على من تأملها .

ثم ذكر عقاب من اجترحوه - كل منهم بقدر ماخاض فيه فقال :
(لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم) أى لكل امرئ منهم جزاء
ما اجترح من الإثم بقدر ماخاض فيه ، فإن بعضهم تكلم ، وبعضهم ضحك كالمسرور
الراضى بما سمع ، وبعضهم أقلَّ وبعضهم أكثر .

(والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم) أى والذى تحمل معظم ذلك الإثم منهم
وهو عبد الله بن أبى (عليه اللعنة) له عذاب عظيم فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا
فبإظهار نفاقه على رموس الأَشهاد ، وأما فى الآخرة فبِعذاب لا يقدر قدره إلا
العلم الحكيم .

وقد كان هو أول من اختلقه لإمعانه فى عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

وقال الضحاك: الذي تولى كبره حسان ومسطح فجلدهما صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله عذرها وجلدها معها امرأة من قريش، وإنما أضاف الكبير إليه لأنه ابتداء بذلك القول، لاجرم حصل له من العقاب مثل ما حصل لكل من قال ذلك لقوله عليه الصلاة والسلام « من سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة ». ثم عاتب الله أهل الإيمان به فيما وقع في أنفسهم من إرجاف من أرفج في أمر عائشة وزجرهم بتسعة أمور:

(١) (ولولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين) أى هلا إذ سمعتم ما قال أهل الإفك في عائشة ظنتم بمن اتهم بذلك خيرا، لأن الإيمان يحملكم على إحسان الظن ويكفكم عن إساءتكم أنفسكم أى أمثالكم من المؤمنين الذين هم كأنفسكم كما قال « وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ » وقال « إِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَأَلُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ » وهلا قلتم حينئذ هذا كذب ظاهر مكشوف؟ فإن الذى وقع لم يكن فيه ما يرتاب منه - ذاك أن محبى أم المؤمنين راكبة جهرة على راحلة صفوان وقت الظهيرة والجيش أجمعه يشاهد ذلك، ورسول الله بين أظهرهم ينقى كل شك، وإنا قيل ما قيل لحسد في القلوب كامن، وبقض في النفس مكتوم.

ثم علل سبحانه كذب الأفكين ووبخهم على ما اختلقوه وأذاعوه بقوله:

(٢) (لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء) أى هلا جاء الخائضون في الإفك بأربعة شهداء يشهدون على ثبوت ما قالوا وما رموها به.

(فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون) أى حين لم يقيموا بينة على ما قالوا فأولئك المفسدون هم الكاذبون في حكم الله وشرعه.

(٣) (ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم) أى ولولا تفضله سبحانه عليكم في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب للتوبة، ورحمته في الآخرة بالعفو بعد التوبة - لعجل لكم العقاب في الدنيا من جراء ما خضتم فيه من حديث الإفك والبهتان.

ثم بين سبحانه وقت حلول العذاب الذي كانوا يستحقونه لولا الفضل والرحمة بقوله :

(٤) (إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم) أى ولولا تفضله ورحمته لمسكم ذلك العذاب وقت تلقيكم ما أفضتم فيه من الإفك وأخذ بعضكم إياه من بعض بالسؤال عنه ، وقولكم قولا بالأفواه دون أن يكون له منشأ في القلوب يؤيده ، وظنكم إياه هينا سهلا لا يعابأ به ، وهو من العظام والكبائر عند الله .

وخلاصة ذلك - إنه وصفهم بارتكاب ثلاثة آثام وعلق مس العذاب العظيم بها :
(أ) تلقى الإفك بالألسنة ، فقد كان الرجل يلقى أخاه فيقول له ما وراءك ، فيحدثه حديث الإفك حتى شاع وانتشر حتى لم يبق بيت ولا ناد إلا طار فيه ، فهم قد فعلوا جهد المستطاع في نشره .

(ب) إنه قول بلا روية ولا فكر ، فهو قول باللسان لا يترجم عما في القلب ، إذ ليس هناك علم يؤيده ولا قرآن أحوال وشواهد تصدقه .

(ح) استصغار ذلك وحسابه مما لا يؤبه له ، وهو عند الله عظيم الوزر ، مستحق لشديد العقوبة .

(٥) (ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ، سبحانه هذا بهتان عظيم) أى وهلاحين سمعتموه ممن بدأ به وانتحلوه أو ممن تابعه في القول - قلتم تكذيبا له وتهويلا لشأن ما ارتكبه من الجرم : لا يحل لنا أن نتكلم بهذا ولا ينبغى لنا أن نتفوه به سبحانه رب - هذا كذب صراح يحير السامعين أمره لما فيه من جرأة على بيت كريم شهير بالعرفان والطهر ، ولما فيه من مس عرض ذلك البيت المقدس ، بيت النبوة الذى هو فى الذروة العليا من الإجلال والاحترام وعظيم المكانة ؛ وإذا جاز الخوض فيه على هذه الشاكلة فماذا يبق للمؤمنين بعدئذ ؟ أفليس هؤلاء هم الأسوة الحسنة ، وينبوع الطهر ومنهم يقبس المؤمنون فضائل الدين وشريف الأخلاق ؟

وإنا لنبرأ إليك ربنا منه وأن تلوكة ألسنتنا وأن يحمل الهواء تلك النبرات الصوتية لتصل إلى أسماعنا ، كما نبرأ إليك ربنا من كل أفك أثيم سولت له نفسه أن يكون الوسيلة في انتشار هذا القول الكاذب بين المؤمنين .

وخلاصة هذا - تنزه ربنا أن يرضى بظلم هؤلاء القاذفين والأيامقهم على عظيم ما ارتكبوا وعلى كبير ما اجترحوا من الإثم والفسوق ، وأن توسم زوج نبيه بالفجور ، والعقل والدين يمتنعان الخوض في مثل هذا ، لأن فيه إيذاء للنبي صلى الله عليه وسلم والله يقول « إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » ولأن فيه إشاعة الفاحشة التي أمر الله بسترها ، ولأن في إظهار محاسن الناس وترك معايبهم تحلقا بأخلاق الله وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « تخلقوا بأخلاق الله » .

ثم حذر عباده المؤمنين أن يعودوا لمثل هذا فقال :

(٦) (يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين) أى يعظكم الله بهذه المواعظ التي بها تعرفون عظم هذا الذنب وكبير هذا الجرم ، وأن فيه النكال والعقاب بالحد في الدنيا ، والعذاب في الآخرة ، كي لا تعودوا لمثله أبدا إن كنتم من أهل الإيمان تمتظون بعظات الله ، وتأتومرون لأمره وتنتهون عما نهاكم عنه .

وفي قوله : (إن كنتم مؤمنين) إيماء إلى أن الإيمان لا يمنع من فعل هذا .

(ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم) أى ويفضل الله لكم في كتابه آيات التشريع ومحاسن الفضائل والآداب ، وهو العليم بكم ، لا يخفى عليه شيء منها ، فيجازى الحسن منكم بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، الحكيم في تدبير شئونكم وفيما كلفكم به مما فيه سعادتكم في معاشكم ومعادكم ، وبه تسمون نفوسكم وترقى إلى عالم الأرواح وتكونون خير الأمم في سياسة الشعوب وعماراة الأرض وإقامة ميزان العدل بين أفرادها « وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ » ولقد صدق الله وعده وعمر أسلافنا الأولون ما كان معروفوا في ذلك الحين وبشوا فيه فضائل الدين وسماحته

حتى صاروا مضرب الأمثال ، فلما انحرفوا عن الصراط السوى والنهج التويم تقلص ظلمهم وذهب ربحهم وصاروا أذلاء مستعبدين بعد أن كانوا السادة الحاكمين ، والله الأمر من قبل ومن بعد .

ولما كان من أنفع المواعظ بيان ما يستحقه المذنب من العقاب على جرّمه بين ذلك بقوله :

(٧) (إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة) أى إن الذين يحبون أن يذيع الزنا في المحصنين والمحصنات من المؤمنين والمؤمنات ، لهم عذاب موجع في الدنيا بإقامة الحد عليهم واللعن والذم من الناس ، وفي الآخرة بعذاب النار وبئس القرار .

وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » وعنه عليه السلام أنه قال : « لا يستر عبد مؤمن عورة عبد مؤمن إلا ستره الله يوم القيامة ، ومن أقال عثرة مسلم أقال الله عثرته يوم القيامة » .

(والله يعلم وأتم لاتعلمون) فردوا الأمور إلى ربكم ترشدوا ، ولا ترووا ما لا علم لكم به ، ولا سيما حلائل رسول الله صلى الله عليه وسلم فتهلكوا .

ثم كرر فضله ورحمته على عباده اللئمة عليهم بترك المعالجة بالعقاب فقال :
(٨) (ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم) أى ولولا أن الله تفضل عليكم وأبقاكم بعد الخوض في الإفك ومكنكم من التلافي بالتوبة لهلكتم ، لكنه لرأفته بعباده لا يدع ما هو أصلح للعبد وإن جنى على نفسه .

وبعد إذ حذر عباده من اتباع وساوس الشيطان فقال :

(٩) (يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان) أى يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله لا تسلكوا سبل الشيطان وطرقه ، ولا تقتفوا آثاره بإشاعتكم الفحشاء في الذين آمنوا وإذاعتكموها فيهم بروايتكم إياها عن نقلها إليكم .

ثم ذكر سبب النهي فقال :

(ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر) أى ومن يتبع الشيطان ارتكب الفحشاء والمنكر ، فإنه لا يأمر إلا بهما ، ومن هذا شأنه لا ينبغي اتباعه ولا طاعته .

ثم أكد منته على عباده فقال :

(ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من أحد أبدا) أى ولولا فضل الله عليكم ورحمته بكم بتوفيقكم للتوبة التى تمحو الذنوب وتغسل أدرانها ما طهر أحد منكم من ذنبه وكانت عاقبته النكال والوبال ، واعاجلكم بالعقوبة كما قال :

« وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمْ مِنْ دَابَّةٍ » .

(ولكن الله يزكى من يشاء) أى ولكن الله جلت قدرته يطهر من يشاء من خلقه بقبول توبتهم من تلك الذنوب التى اجترحوها تفضلا منه ورحمة كما فعل بمن سلم من داء النفاق ممن وقع فى حديث الإفك كحسان ومسطح وغيرهما .

(والله سميع عليم) أى والله سميع لما يقولون بأفواهكم من القذف وإثبات البراءة ، عليم بما فى قلوبكم من محبة إشاعة الفاحشة أو كراهتها ، ومجازيكم بكل ذلك .

وفى هذا حث لهم على الإخلاص فى التوبة والابتعاد جهد المستطاع عن المعصية وارتكاب الأوزار والآثام .

(ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤثروا أولى القرى والمساكين والمهاجرين) أى ولا يحلف من كان ذا فضل وسعة منكم أيها المؤمنون بالله ، ألا يعطوا ذوى قرابتهم المساكين المهاجرين كمسطح ابن خالة أبى بكر الذى كان فقيرا وهاجر من مكة إلى المدينة وشهد مع رسول الله بدرًا .

روى أن الآية نزلت فى أبى بكر رضى الله عنه حين حلف أن لا ينفع مسطح ابن أمانة بنافعة أبدا بعد ما قال فى عائشة ما قال .

ذاك أنه بعد أن أنزلت براءة عائشة وطابت النفوس وتاب الله على من تكلم من المؤمنين في ذلك وأقيم الحد على من أقيم عليه - تفضل وله الحمد والمنة فعطف الصديق على قريبه مسطح وكان ابن خالته وكان مسكيناً لآمال له وكان من المهاجرين في سبيل الله وقد زلق زقة تاب الله عليه منها وضرب الحد عليها .

(وليعفوا وليصفحوا) أى وليتركوا عقوبتهم على ذلك بحرماتهم مما كانوا يؤتونهم قبل ذلك ، وليعودوا لهم إلى مثل الذى كان لهم عليهم من الإفضال .
ثم رغبهم في العفو والتفضل فقال :

(ألا تحبون أن يغفر الله لكم) أى ألا تحبون أن يستر الله عليكم ذنوبكم بإفضاله عليكم ، والجزاء من جنس العمل ، فكما تغفر ذنب من أذنب إليك يغفر الله لك ، وكما تصفح يصفح الله عنك ، فحينئذ قال الصديق : بلى والله نجب أن تغفر لنا ربنا ، ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة وقال والله لا أنزعها منه أبداً .

(والله غفور رحيم) أى والله غفور للذنوب من أطاعه واتبع أمره ، رحيم به أن يعذبه على ما كان له من زلة قد استغفر منها وتاب إليه من فعلها .
وفي هذا ترغيب عظيم في العفو ووعد كريم عليه بالمغفرة من الذنوب وحث على مكارم الأخلاق .

إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ
وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ
وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥) .

شرح المفردات

الحصنات : العفيفات ، الغافلات : أى عن الفواحش وهن النقيات القلوب
اللاتى لا يفكرن فى فعلها ، لعنوا : أى طردوا من رحمة الله فى الآخرة وعذبوا
فى الدنيا بالحد ، دينهم : أى جزاءهم ومنه « كما تدين تدان » الحق : أى الثابت الذى
يحقق لهم لا محالة ، أن الله : أى وعده ووعيده ، الحق : أى العدل الذى لا جور فيه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر قصص أم المؤمنين عائشة وبين عقاب من اتهمها بالإفك وشديد
عذابه يوم القيامة وأسهب فى هذا - أعقب ذلك ببيان حكم عام وهو أن كل من
اتهم محصنة مؤمنة غافلة من الخنا والتجور - فهو مطرود من رحمة الله بعيد عن دار
نعيمه معذب فى جهنم إلا إذا تاب وأحسن التوبة وعمل صالحا .

الإيضاح

(إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم
عذاب عظيم) أى إن الذين يتهمون بالفاحشة العفيفات الغافلات عنها المؤمنات بالله
ورسوله - أُبعِدُوا من رحمة الله فى الدنيا والآخرة ، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم
جزاء ما اقترفوا من جنائياتهم ، فهم مصدر قالة السوء فى المؤمنات وإشاعة الفاحشة
بين المؤمنين والقدوة السيئة لمن يتكلم بها ، فعليهم وزرها ووزر من تكلم بها كما ورد
فى الحديث : « من سن سنة سيئة فعلينه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » .
(يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) أى ولهم ذلك
العذاب الذى لا يقدر قدره يوم يحمدون ما اكتسبوا فى الدنيا من الذنوب حين
سؤالهم عنها ، فتشهد عليهم أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون من قول أو فعل ،
إذ ينطقها الله بقدرته فتخبر كل جارحة منها بما صدر منها من أفعال صاحبها .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَقَالُوا لُجُلُودِهِمْ : لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ؟ قَالُوا
أَنطَقَنَا اللَّهُ » .

عن أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا كان يوم
القيامة عُرِّفَ الكافر بعمله ، فيجحد ويخاصم ، فيقال هؤلاء جيرانك يشهدون
عليك ، فيقول كذبوا ، فيقال أهلك وعشيرتك ، فيقول كذبوا ، فيقال احلفوا
فيحلفون ، ثم يُصمَّمهم الله فتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم ثم يدخلهم النار» .
ويرى فريق من المفسرين أن الشهادة هنا ليست الشهادة باللسان ، بل شهادة
الإثبات والبيان ، إذ كل ما يعمله الإنسان في الدنيا من قول أو فعل تنطبع له صورة
على العضو الذي فعله ، فالكلمة بقولها تنطبع لها صورة على اللسان ، واليد التي تمتد
لفعل شيء ، والرجل التي تخطو إلى عمل ، كل ذلك يحفظ على نفس الجارحة التي
فعلته ، فما أشبه ذلك بالصور التي تؤخذ اليوم لأصابع المجرمين وبصمات أيديهم
وأرجلهم في قلم تحقيق الشخصية للرجوع إليها إذا دعت الحاجة إلى ضبط أولئك
المجرمين ، فما ينطبع إذ ذاك على اللسان واليد والرجل يكون كافيا جد الكفماية
في إثبات الجرم على أولئك المجرمين والظلمة الظالمين .

(يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين) أى في هذا
اليوم يوفيهم الله جزاءهم على أعمالهم ويعلمون أن ما كانوا يوعدون به في حياتهم
الدنيا من العذاب هو الحق الذي لا شك فيه ويزول عنهم كل ريب كان قد ألم بهم
في الدار الأولى .

عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اجتنبوا
السبع الموبقات ، قيل وما هن يا رسول الله ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل
النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ،
وقذف الحصنات الغافلات المؤمنات » رواه الشيخان .

قال صاحب الكشاف : ولو قلبت القرآن كله وفتشت عما أوعده به العصاة

لم تر أن الله قد غلظ في شيء تغليظه في إفاك عائشة رضوان الله عليها ، ولا أنزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد والمعقاب البليغ والزجر العنيف واستعظام ماركب من ذلك ، واستنطاق ما أقدم عليه ، على طرق مختلفة ، وأساليب مفتنة ، كل واحد منها كاف في بابه ، ولو لم ينزل إلا هذه الثلاث الكفى بها حيث جعل القذفة ملعونين في الدارين جميعا وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة بأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الذي هم أهله اه .

الْخَيْثَاتُ لِلْخَيْثِينَ ، وَالْخَيْثُونَ لِلْخَيْثَاتِ ، وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ ،
وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ، أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ
كَرِيمٌ (٢٦) .

المعنى الجملى

بعد أن برأ سبحانه عائشة مما رميت به من الإفك، ثم ذكر أن رامى الحصنات الغافلات مطرود من رحمة الله - أردف ذلك بدليل ينفي الريبة عن عائشة بأجلى وضوح - ذاك أن السنة الجارية بين الخلق مبنية على مشاكلة الأخلاق والصفات بين الزوجين ، فالطيبات للطيبين والخبيثات للخبيثين ، ورسول الله من أطيب الطيبين ، فيجب كون الصديقة من أطيب الطيبات على مقتضى المنطق السليم ، والعادة الشائعة بين الخلق .

الإيضاح

(الخبيثات للخبيثين) أى الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال لا يتجاوزنهم إلى غيرهم .

(والخبيثون للخبيثات) أى والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء ، لأن
المجانسة من دواعى الألفة ودوام العشرة .

(والطيبات للطيبين) أى والطيبات من النساء للطيبين من الرجال لما قد عرفت
من الأنس بمن يحاكيك فى الصفات ويحانسك فى الفضل والكمال .

(والطييون للطيبات) أى والطييون أيضا للطيبات ممنهن لا يتجاوزوهن إلى
من عداهن .

وإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أطيب الأطيبين ، وخيرة الأولين
والآخرين ، استبان أن الصديقة رضى الله عنها من أطيب الطيبات واستبان بطلان
ما أشاعه المرجفون من أهل الإفك .

(أولئك مبرءون مما يقولون) أى أولئك الطييون والطيبات ومنهم صفوان
وعائشة مبرءون مما يقول الخبيثون والخبيثات من النساء .

(لهم مغفرة ورضق كريم) أى لهم مغفرة عن ذنوبهم التى اقترفوها من قبل ،
ورزق كريم عند ربهم فى جنات النعيم .

(تنبيه) هذه الآية الكريمة تشرح الغرائز والطباع وتبين أن الإنسان بل
هذا الوجود لاتلاؤم بين أجزائه إلا بصفات متناسبة ، فالكرة الأرضية متجاذبة
الأجزاء وكرة الهواء مطيعة لمجموعها لما بينها من تناسب وتشابه فى الصفات ، وهكذا
أخلاق الناس وصفاتهم إذا تشابهت اتفقوا ، وهم يكونون يوم القيامة كذلك ،
لا يجتمعون إلا حيث يتفقون .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا
وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ، ذَلِكَ خَيْرٌ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا
فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ ، وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا

فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩) .

شرح المفردات

حتى تستأنسوا : أى حتى تستأذنوا ، إذ به يحصل أنس أهل البيت ، وبدونه يستوحشون ويشق عليهم ذلك ، تذكرون : أى تتعظون ، أزكى : أى أطهر ، جناح : أى حرج ، متاع : أى حق تمتع ومنفعة كإيواء الأمتعة والرحال والشراء والبيع كحوائت التجارة والفنادق والحمامات ونحوها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه حكم قذف المحصنات الأجنبية وحكم قذف الزوجات ، ثم أتبع ذلك بقصص أهل الإفك وبسط ذلك غاية البسط ، وكان مما يسهل السبيل إلى التهمة فى كل هذا وجود الخلوة بين رجل وامرأة - أعقب ذلك بحكم دخول المرء بيت غيره ، وبين أنه لا يدخله إلا بعد الاستئذان والسلام حتى لا يوجد بحال تورث التهمة التى أمرنا بالابتعاد عنها جهد الطاقة ، إلى أن الإنسان قد يكون فى بيته ومكان خلوته على حال لا يود أن يراه غيره عليها .

روى عدى بن ثابت عن رجل من الأنصار «أن امرأة قالت يارسول الله : إني أكون فى بيتى على الحال التى لأحب أن يرانى عليها أحد لا والد ولا ولد ، فيأتينى آت فيدخل علىّ فكيف أصنع ؟ فنزلت (يا أيها الذين آمنوا) الآية » .

الايضاح

(يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسألوا على أهلها) أدب الله عباده المؤمنين بأداب نافعة فى بقاء الود وحسن العشرة بينهم ،

ومن ذلك ألا يدخلوا بيوت غيرهم إلا بعد الاستئذان والسلام حتى لا يطلعوا على عورات سواهم ، ولا ينظروا إلى ما لا يحل لهم النظر إليه ولا يقفوا على الأحوال التي يطويها الناس في العادة ويتحفظون من اطلاع أحد عليها - إلى أن في هذا تصرفا في ملك غيرك فلا بد أن يكون برضاه .

وينبغي أن يكون الاستئذان ثلاث مرات ، فإن أذن له دخل وإلا انصرف ، فقد ثبت في الصحيح أن أبا موسى الأشعري حين استأذن على عمر ثلاثا فلم يؤذن له انصرف ، ثم قال عمر : ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس (يعنى أبا موسى) يستأذن ؟ ائذنوا له ، فطلبوه فوجدوه قد ذهب ، فلما جاء بعد ذلك قال ما أرجعك ؟ قال إني استأذنت ثلاثا فلم يؤذن لى وإني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليانصرف » .

(ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون) أى الاستئذان والتسليم والانتظار حتى يؤذن لكم خير من الدخول بغتة أو من الدخول على عادة الجاهلية ، فقد كان الرجل منهم إذا أراد أن يدخل بيتا غير بيته يقول حيميم صباحا ، حيميم مساء ، ثم يدخل فربما أصاب الرجل مع امرأته في الحاف واحد .

وقد أرشدكم ربكم إلى ذلك كى تتذكروا وتتعظوا وتعملوا بما أمرتم به .

(فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم) أى فإن لم تجدوا فيها أحدا ممن يملك الإذن بأن كان فيها عبد أو صبي فلا تدخلوها حتى يأذن لكم من يملكه وهو رب الدار .

وقد استثنى من ذلك ما إذا دعت الضرورة إلى الدخول فورا كإطفاء حريق أو منع حدوث جناية أو نحو ذلك .

(وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم) أى وإن قال لكم أهل البيت الذى تستأذنون فيه ارجعوا فارجعوا ، فإن الرجوع أظهر لكم في دينكم ودنياكم ، لأن رب الدار قد يستوحش ويتأذى بوقوف غيره على بابه بعد منع الاستئذان ،

ولما في ذلك من الدناءة والتسكع على بيوت الناس ، وربما ظن بأهل البيت سوء من وقوف الأجانب على أبوابهم .

(والله بما تعملون عليم) أى والله عليم بكل مقاصدكم ونواياكم من دخول البيوت ومجازيكم على ذلك .

ولما بين حكم البيوت المسكونة بين حكم البيوت غير المسكونة فقال :

(ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتنا غير مسكونة فيها متاع لكم) أى ليس عليكم أيها المؤمنون إثم ولا حرج أن تدخلوا بيوتنا غير معدة لسكنى قوم معينين ، بل معدة ليطمئنع بها من يحتاج إليها كائننا من كان كالغنادق والخوانيت والحمامات ونحوها مما فيه حق التمتع لكم كالمبيت فيها وإيواء الأمتعة والبيع والشراء والاعتسال ونحو ذلك ، لأن السبب الذى لأجله منع دخول البيت وهو الاطلاع على عورات الناس والوقوف على أسرارهم - غير موجود فيها .

روى أن أبا بكر قال «يا رسول الله : إن الله قد أنزل عليك آية في الاستئذان ، وإنما لاختلاف في تجارتنا فننزل هذه الخانات ، أفلا ندخلها إلا بإذن ؟ فنزلت الآية » .

(والله يعلم ما تبدون وما تكتمون) أى والله عليم بما تظهرون بألسنتكم من الاستئذان إذا استأذنتم على أهل البيوت المسكونة ، وما تضمرون من حب الاطلاع على عورات الناس أو من قصد ريبة أو فساد .

وفى هذا من الوعيد الشديد ما لا يخفى .

قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ، ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُلْ الْمُؤْمِنَاتُ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ، وَيُضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ، وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ

أَوْ آبَائِهِمْ أَوْ آبَاءَ مُؤْمِنِينَ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَ مُؤْمِنِينَ أَوْ إِخْوَانِهِمْ
 أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِمْ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِمْ أَوْ نِسَائِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ
 أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْأَرْبَابَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الطُّفُلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى
 عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ، وَلَا يَضْرِبْنَ بَأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ،
 وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١) .

شرح المفردات

غض بصره : خفض منه ، وانلمر : واحدها خمار ، وهو مانع يغطى به المرأة رأسها
 (طرحه) والجيوب واحدها جيب : وهو فتحة في أعلى القميص يبدو منها بعض الجسد ،
 والبعولة : الأزواج واحدهم بعل ، والأرابة : الحاجة إلى النساء ، والطفل : يطلق على
 الواحد والجمع ، لم يظهروا : أى لم يعلموا عورات النساء لصغرهم .

المعنى الجملى

بعد أن نهى سبحانه عن دخول البيوت إلا بعد الاستئذان والسلام على أهلها
 منعا للقييل والقال والاطلاع على عورات الناس وأسرارهم - أمر رسوله أن يرشد
 المؤمنين إلى غض البصر عن المحارم لمثل السبب المتقدم ، إذ ربما كان ذلك ذريعة
 إلى وقوع المفاسد وانتهاك الحرمات التى نهى الدين عنها .

الإيضاح

(قل المؤمنين يعضوا من أبصارهم) أى قل أيها الرسول المؤمنين كفوا أبصاركم
 عما حرم الله عليكم ولا تنظروا إلا ما يباح لكم النظر إليه ، فإن وقع البصر على محرم
 من غير قصد فليصرفوا أبصارهم عنه سر يعا لما رواه مسلم عن عبد الله الجبلى قال :

« سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن نظرة الفجاءة فأمرني أن أصرف بصرى » ،
 وروى أبوداود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلى : « يا على لا تتبع النظرة النظرة ،
 فإن لك الأولى وليس لك الآخرة » ، وفي الصحيح عن أبي سعيد قال : قال رسول
 الله صلى الله عليه وسلم « إياكم والجلوس على الطرقات ، قالوا يا رسول الله لا بد لنا
 من مجالسنا نتحدث فيها ، فقال صلى الله عليه وسلم : إن أيتيم فأعطوا الطريق حقه ،
 قالوا وما حق الطريق يا رسول الله ؟ قال غض البصر وكف الأذى ورد السلام
 والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » .

والحكمة في ذلك : أن في غض البصر سدا لباب الشر ، ومنعاً لارتكاب المآثم
 والذنوب ، والله در أحمد شوقى حيث يقول :

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء

(ويحفظوا فروجهم) بمنعها من عمل الفاحشة ، أو يحفظها من أن أحداً
 ينظر إليها ، وقد جاء في الحديث : « احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت
 يمينك » .

(ذلكم أزكى لكم) أى ما ذكر من غض البصر وحفظ الفرج أطهر من دنس
 الريبة وأنفع ديناً ودنياً فقد قالوا : النظر يزيد الزنا ورائد الفجور ، والله در شاعرهم :

كل الحوادث مبداها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر
 كم نظرة فعلت في قلب فاعلمها فعل السهام بلا قوس ولا وتر
 والمرء مادام ذا عين يقلبها في أعين العين موقوف على الخطر
 يسر ناظره ما سر خاطره لا مرحباً بسرور عاد بالضرر

(إن الله خبير بما يصنعون) فلا يخفى عليه شيء مما يصدر منهم من الأفعال
 كإجالة النظر واستعمال سائر الحواس ، وماذا يراد بذلك ، فلتكونوا على حذر منه
 تعالى في كل ماتأتون وما تذررون .

وبعد أن أمر رسوله بأمر المؤمنين بغض أبصارهم أمره بأن يأمر المؤمنات بذلك .
 (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن) فلا ينظرن إلى ما لا يحل لهن
 النظر إليه من عورات الرجال والنساء (ما بين السرة والركبة) وإذا نظرن إلى ما عدا
 ذلك بشهوة حرم ، وبدونها لا يحرم ، ولكن غض البصر عن الأجانب أولى بهن
 وأجمل ؛ لما روى أبو داود والترمذى عن أم سلمة « أنها كانت عند رسول الله صلى
 الله عليه وسلم وميمونة إذ أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليه بعد ما أمرنا بالحجاب ،
 فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم احتجبا منه ، فقلت يا رسول الله : أليس
 هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو عميا وان
 أنتما ؟ أو لستما تبصرانه ؟ » .

(ويحفظن فروجهن) عما لا يحل لهن من الزنا والسحاق ويستترن بها حتى
 لا يراها أحد .

(ولا يبيدين زينتهن إلا ما ظهر منها) أى ولا يظهرن شيئا من الزينة للأجانب
 إلا ما لا يمكن إخفاؤه مما جرت العادة بظهوره كالثياب والكحل والخضاب ، وإنما
 المؤاخذة فى إبداء ما خفى من الزينة كالسوار والخلخال والدُمْلُج والقلادة والإكليل
 والشاح والقرط ، لأن هذه الزينة واقعة فى مواضع من الجسد (وهى الذراع والساق
 والمعصد والعنق والرأس والصدر والأذن) لا يحل النظر إليها إلا لمن استثنى
 فى الآية بعد .

ولما نهى عن إبداء الزينة أرشد إلى إخفاء بعض مواضعها فقال :

(وليضربن بخمرهن على جيوبهن) أى وليلقين خمرهن على جيوبهن ليستترن
 بذلك شعورهن وأعناقهن وصدورهن حتى لا يرى منها شيء ، وكان النساء يغطين
 رءوسهن بالخمر ويسدلنها من وراء الظهر فتبدو نحورهن وبعض صدورهن كعادة
 الجاهلية فنهين عن ذلك ، قالت عائشة : رحم الله النساء المهاجرات الأول لما أنزل
 الله (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) شققن مروطهن فاختمرن بها .

(ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن) أى قل المؤمنات لا يظهرن هذه الزينة الخفية إلا لأزواجهن ، فإنهم المقصودون بها ، والمأمورات نساؤهم بصنعها لهم ، حتى إن لهم ضربين على تركها ، ولهم النظر إلى جميع بدنهن ، أو لآباء النساء أو لآباء الأزواج أو لأبنائهن أو لأبناء أزواجهن أو لأخواتهن أو لأبناء الإخوة أو لأبناء الأخوات ، لكثرة المخالطة بينهم وبينهن ، وقلة توقع الفتنة من قبلهم ولأن الطباع السليمة تأبى أن تفتن بالفريبات ، إلى أنهن محتاجات إلى صحبتهم في الأسفار للركوب والنزول .

(أو نسائهن) أى المختصات بهن بالصحبة والخدمة .
 (أو ما ملكت أيمانهن) من الجوازي ، أما العبيد فقد اختلفوا فيهم ، فقال قوم عبد المرأة محرم لها فيجوز له الدخول عليها إذا كان غفيفا ، وله أن ينظر إلى بدن مولاته إلا ما بين السرة والركبة كالخارج ، وروى ذلك عن عائشة وأم سلمة ، وقد روى أن عائشة كانت تمتشط وبعدها ينظر إليها ، وقال قوم هو كالأجنبي معها وهو رأى ابن مسعود والحسن وابن سيرين ، ومن ثم قالوا لا ينظر العبد إلى شعر مولاته ، وسئل طاوس هل يرى غلام المرأة رأسها وقدمها ؟ قال ما أحب ذلك إلا أن يكون غلاما يسيرا ، فأما رجل ذو لحية فلا .

(أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال) وهم الذين يتبعون القوم ليصيبيوا من فضل طعامهم لا غرض لهم إلا ذلك ولا حاجة لهم إلى النساء ، إما لأنهم طعنوا في السن فقنيت شهواتهم ، وإما لكونهم ممسوحين قطعت منهم أعضاء التناسل .
 (أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء) أى أو الأطفال الذين لم يبلغوا سن الشهوة والقدرة على ملاسة النساء .

ثم نهى عن إظهار وسوسة الحلى بعد النهى عن إبداء مواضعه فقال :
 (ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن) أى ولا يضربن بأرجلهن

الأرض لتقعقع خلاخلهن ، فإن ذلك مما يهيج الرجال ويورث ميلا إليهن ، وللنساء أفانين في هذا فقد يجعلان الخرز ونحوه في جوف الخلخال ، فإذا مشين ولو هو ناك كان له رنين وصوت خاص ، ومن الناس من تهبجه وسوسة الحلى أكثر مما تهبجه رؤيته .

(وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) أى ارجعوا أيها المؤمنون إلى طاعة الله فيما أمركم به ونهاكم عنه من غض البصر وحفظ الفرج وترك دخول بيوت غيركم بلا استئذان ولا تسلیم ، تفوزوا بسعادة الدنيا والآخرة .

أخرج أحمد والبخارى والبيهقى في شعب الإيمان عن ابن عمر أنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « أيها الناس توبوا إلى الله ، فإنى أتوب إليه كل يوم مائة مرة » .

ومن شرط التوبة : الإقلاع عن الذنب والندم على ما مضى والعزم على ألا يعود إليه ورد الحقوق إلى أهلها ، لا كما يظن الناس الآن أنها كلمة تلاك باللسان دون أن يكون لها أثر في القلب ولا عزم على عدم العود ، حتى إن كثيرا ممن يزعمون أنهم تابوا من الذنب يحكون ما فعلوه من الآثام على وجه الفخر والاستلذاذ بذكره ، وهذا دليل على أنهم كاذبون في توبتهم مرادون في أفعالهم .

وَأَنْكِحُوا الْأَيَّامَ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْزِمِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) وَلَيْسَتَعَفِيفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُعْزِمَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَالَّذِينَ يَبْتِمُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ، وَلَا تُكْرِهُوا فَتِياتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِيَبْتِغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ

بَعْدَ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٣) وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ
وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٣٤).

شرح المفردات

الأيامى : واحد هم أيم وهو كما قال النضر بن شميل كل ذكر لا أثنى معه ، وكل أثنى لا ذكر معها بكرا كانت أو ثيبا ، ويقال أمت المرأة وآم الرجل إذا لم يتزوجا بكرين أو ثيبين ، وكثر استعماله فى الرجل إذا مات امرأته وفى المرأة إذا مات زوجها ، والصالحين : أى الصالحين للنكاح والقيام بحقوقه ، والإماء : واحد هن أمة وهى الرقيقة غير الحرة ، واسع : أى غنى ، وليستغف : أى وليجتهد فى العفة : لا يحدون : أى لا يتسكنون من وسائله وهى المال . والكتاب والمكاتبة : كالعتاب والمعاتبة يراد بها شرعا إعتاق المملوك بعد أداء شىء من المال منجما أى فى مواعدين أو أكثر فيقول له كاتبك على كذا درهما ويقبل المملوك ذلك ، فإذا أداء عتق وصار أحق بمكاسبه ، كما صار أحق بنفسه ، والفتيات : واحد هن فتاة ، ويراد بالفتى والفتاة لغة العبد والأمة ، والبغاء : الزنا ، والتحصن : العفة ، لتبتغوا أى لتطلبوا : عرض الحياة الدنيا : أى الكسب وبيع الأولاد ، مبيئات : أى مفصلات ما أتم فى حاجة إلى بيانه من الأحكام والآداب ، مثلا : أى قصة عجيبة من قصص الماضين كقصة يوسف ومريم .

المعنى الجملى

لما أمر سبحانه بغض الأبصار وحفظ الفروج ونحوهما مما يفضى إلى السفاح أعقبه بالأمر بإنكاح الأيامى ، لأنه الوسيلة لبقاء هذا النوع وحفظ الأنساب الذى يستدعى مزيد الشفقة على الأولاد وحسن تربيتهم ودوام الألفة بينهم ؛ ثم ذكر حكم من يعجز عن ذلك لعدم وجود المال لديه ، ثم رغب فى مكاتبة الأرقاء ، ليصيروا

أحراراً في أنفسهم وفي أموالهم يتزوجون كما يشاءون ، وبعدهذا أردف ذلك بالنهاى عن إكراه الإماء على الفجور إن أردن العفة ، ابتغاء ظل زائل من عرض الدنيا . ثم ختم هذا ببيان أنه أنزل عليكم في هذه السورة وفي غيرها آيات مبينات لكل ما أنتم في حاجة إلى بيانه من أحكام وآداب وحدود زاجرة ، وعقوبات رادعة ، وقصص عجيبية عن الماضين وأمثال مضروبة لتكون عبرة وذكرى لكم .

الإيضاح

(وأنكحوا الأيامى منكم) أى زوّجوا من لازوج له من الأحرار والحرائر : أى من الرجال والنساء ، والمراد بذلك المساعدة بكل الوسائل حتى يتسنى لهم ذلك كمدّم بالمال وتسهيل الوسائل التي بها يتم ذلك الزواج والمصاهرة . (والصالحين من عبادكم وإمائكم) أى والقادرين والقادرات على النكاح والقيام بحقوق الزوجية من الصحة والمال ونحو ذلك .

والخلاصة — إن في الآية أمراً للأولياء بتزويج من لهم عليهم حق الولاية وللسادة بتزويج العبيد والإماء ، والجمهور قد حملوا الأمر على الاستحسان لا على الوجوب ، لأنه قد كان في عصر النبي صلى الله عليه وسلم وفي سائر العصور بعده أيامى من الرجال والنساء ولم ينكر ذلك أحد عليهم ، والظاهر أن الأمر يكون للوجوب إذا خيفت الفتنة وغلب على الظن حصول السفاح من الرجل أو المرأة . ثم رغب في الزواج بالفقير والفقيرة وألا يكون عدم وجدان المال حائلاً عن إتمامه فقال :

(إن يكونوا فقراء يعنهم الله من فضله) أى لا تنتظروا إلى فقر من يخطب إليكم أو فقر من تريدون زواجها ، ففي فضل الله ما يعينهم والمال غاد ورأج .
وكم يسر أتي من بعد عسر وفرج كربة القلب الشجي
(والله واسع عليم) أى والله ذو سعة وغنى ، فلا انتهاء لفضله ولا حد لقدرته ،

فهو يسع هذين الزوجين وغيرهما ، وهو عليم ببسط الرزق لمن يشاء ويقدر على حسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة .

قال ابن عباس : أمر الله سبحانه بالنكاح ورغبهم فيه وأمرهم أن يزوجوا أحرارهم وعبيدهم ووعدهم في ذلك الغنى .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة حق على الله عونهم : الناكح يريد العفاف ، والمكاتب يريد الأداء ، والغازي في سبيل الله » .
وبعد أن بين حال القادرين على النكاح ووسائله ، بين حال العاجزين عن تلك الوسائل فقال :

(وليستغف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله) أى وليجتهد في العفة وضمون النفس من لا يتسكن من المال الذى به يتم النكاح ، ولينتظر أن يغنيه الله من فضله حتى يصل إلى بغيته من النكاح ، وقد جاء في الحديث الصحيح : « يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أعض للبصر وأحفظ للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » الباءة مؤن النكاح من مهر ونفقة وكسوة ، والوجاء نوع من الخصاص يكون برض عروق الأثنيين مع بقاء الخصيتين كما هما ، فثبه الصوم في قطعه شهوة النساء به .

(والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا) أى والمماليك الذين يطلبون من ساداتهم أن يكاتبوهم على أداء مال معين نجوما ليصيروا بعد أدائها أحرارا ، ويكونون قادرين على الكسب وأداء ما كوتبوا عليه مع الأمانة والصدق - فكاتبوهم ويكونون بعد انتهاء الأجل وأداء ما أوجبوه على أنفسهم أحرارا في رقابهم وفى كسبهم .

ثم حث المؤمنين جميعا على تحرير الرقاب فقال :

(وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) أى وآتوا أيها السادة للمكاتبين شيئا من مال الله الذى أعطاكم وليس لكم فيه فضل ، فإن الله ربكم ورب عبيدكم ، وأموا لكم

ملكه ، وأعطوا أيها الحكام المكاتبين سهومهم التي جعلها الله لهم في بيت المال في مصارف الزكاة بقوله (وفي الرقاب) أى في تحرير الأرقاء .

وفي هذا حث لجميع المؤمنين على عتق الرقاب ، روى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاثة حق على الله عونهم : المكاتب الذي يريد الأداء ، والناكح يريد العفاف ، والجاهد في سبيل الله » .

ثم نهى المؤمنين عن السعى في جمع المال بسبل الحرام فقال :

(ولا تكثرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا) أى ولا تكثرهوا إماءكم على الزنا إن كنَّ يردن التعفف والتحصن ، التماسا لعرض الدنيا من مال وزينة ورياش .

وفي قوله : (إن أردن تحصنا) زيادة في تقييح حالهم وتشنيع عليهم ، فإن ذل اللزوة لا يرضى بفجور من يحويه بيته من إماءه ، فضلا عن أمرهن بذلك أو إكراههن عليه ولا سيما عند إرادة التعفف وتوافر الرغبة فيه .

والخلاصة — لاتعملوا ما أثم عليه من إكراه الإماء على البغاء طلبا لمناجع سريع الزوال وشيك الفناء والاضمحلال .

أخرج مسلم وأبو داود عن جابر رضى الله عنه أن جارية لعبد الله بن أبي ابن سلول يقال لها (مُسَيِّكَةٌ) وأخرى يقال لها (أميمة) كان يكرههما على الزنا فشكنا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية .

وأخرج ابن مردويه عن علي كرم الله وجهه أنهم كانوا في الجاهلية يكرهون إماءهم على الزنا ليأخذوا أجورهن ، فنهوا عن ذلك في الإسلام ونزلت الآية .

ثم أبان أنهم إن أكرهن فالوزر على من أكرهن لاعلمين فقال :

(ومن يكرهن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم) أى ومن يكرهن على البغاء فإن الله غفور رحيم لمن من بعد إكراههن والذنب على المكروه لهن ، وكان الحسن إذا قرأ الآية قال : لهن والله ، لهن والله .

وبعد أن فصل هذه الأحكام وبينها امتن على عباده بذلك فقال :

(ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين)

أنى ولقد أنزلنا آيات القرآن مبينات لما أتمتم في حاجة إليه من الأحكام والآداب ، كما أنزلنا قصصاً من أخبار الأمم السالفة كقصة يوسف وقصة مريم وفيها شبه بقبص عائشة ، وفيها عظة لمن اتقى الله وخاف عقابه وخشى عذابه .

وأثر عن علي كرم الله وجهه في وصف القرآن : فيه حكم ما بينكم ، وخبر ما قبلكم ، ونياً ما بعدكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله .

اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ،
الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ، الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ
مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَسْكَدُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ
نَارٌ ، نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ
لِلنَّاسِ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) .

شرح المفردات

نور : أى ذو نور أى هو هادٍ أهل السموات والأرض ، والمراد العالم كله .
والمشكاة : لفظ حبشى معرب يراد به الكوة غير النافذة . الزجاج : القنديل من
الزجاج . والدرى : المضى المتلألئ منسوب إلى الدر . لاشرقية ولاغربية : أى
صاحبة لشمس لا يظلمها جبل ولا شجر ولا يحجبها عنها شيء من الشروق إلى الغروب .
يضرب الله الأمثال : أى يبين للناس الأشباه والأمثال .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه أنزل في هذه السورة آيات مبيّنات لكل ما يحتاج إليه الناس في صلاح أحوالهم في معاشهم ومعادهم من الشرائع والأحكام والآداب والأخلاق بين أنه نور السموات والأرض بما بث فيهما من الآيات الكونية والآيات التي أنزلها على رسله دالة على وجوده ووحدانيته وسائر صفاته من قدرة وعلم إلى نحو أولئك ، هادية إلى صلاح أمورهم في الدنيا والآخرة .

الإيضاح

(الله نور السموات والأرض) أى الله هاد أهل السموات والأرض بما نصب من الأدلة في الأكوان وبما أنزل على رسله من الآيات البينات ، فهم بنوره إلى الحق يهتدون ، وبهداه من حيرة الضلال ينجون .

(مثل نوره كمشكاة فيها مصباح) أى مثل أدلته التي بثها في الآفاق وهدى بها من شاء من عباده كنور مشكاة فيها مصباح ضخم ثاقب له الصفات الآتية .
 (المصباح في زجاجة) أى وذلك المصباح في قنديل من الزجاج الصافي الأزهر .
 (الزجاجة كأنها كوكب دري) أى الزجاجة كأنها كوكب ضخم مضيء من درارى النجوم وعظامها كالزهره والمُشترى .

(يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية) أى رويت ذبائته (فتيلته) بزيت شجرة زيتونة كثيرة المنافع ، زرعت على جبل عال أو صحراء واسعة فهي ضاحية للشمس لا يظلمها جبل ولا شجر ولا يحجبها عنها حاجب من حين طلوعها إلى حين غروبها ، فزيتها أشد ما يكون صفاء .

فقوله : (لا شرقية ولا غربية) أى لاشرقية فحسب ، ولا غربية فحسب ، بل هي شرقية غربية تصيبها الشمس من حين طلوعها إلى حين غروبها كما يقال فلان لامسافر ولا مقيم إذا كان يسافر أحيانا ويقوم أخرى .

(يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار) أى هو لصفائه وبريقه ولعانه كأنه يضيء بنفسه دون أن تمسه النار ، لأن الزيت إذا كان خالصا صافيا ثم رُئى من بعد يرى كأن له شعاعا ، فإذا مسته النار ازداد ضوءا على ضوء .. كذلك قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتبه العلم ، فإذا جاءه ازداد نورا على نور وهدى على هدى .

قال يحيى بن سلام : قلب المؤمن يعرف الحق قبل أن يبين له ، لموافقته إياه ، وهو المراد من قوله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ ، فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ » .
(نور على نور) أى هو نور مترادف متضاعف ، قد تناصرت فيه المشكاة والزجاجة والمصباح والزيت حتى لم يبق مما يعوى النور ويزيده إشراقا ويمده بإضاءة بقية .

ذاك أن المصباح إذا كان في مكان ضيق كالمشكاة كان أضواؤه وأجمع لنوره ، بخلاف المسكان الواسع فإن الضوء ينبعث فيه وينتشر ، والقنديل أعون شئ على زيادة الإنارة ، وكذلك الزيت وشفاهه .

(يهدى الله لنوره من يشاء) أى يوفق الله من يشاء من عباده لإصابة الحق بالنظر والتدبر وتوجيه الفكر لسلك طريق الجادة الموصلة إليه ، ومن لم يتدبر فهو كالأعمى سواء لديه جنح الليل اللأمس ، وضحوة النهار الشامس ، وعن على رضى الله عنه : « الله نور السموات والأرض ونشر فيهما الحق وبته فأضاء بنوره » .

(ويضرب الله الأمثال للناس) أى ويسوق الله الأمثال للناس في تضاعيف هدايتهم على حسب ما تدعو إليه حالهم ، لما فيها من الفوائد في النصح والإرشاد ، إذ بها تتفتق الأذهان للوصول إلى الحق ، وبها تأنس النفس بتصويرها المعاني بصور المحسوسات التي تألفها وتدين بها ، ولأمر ما كثرت في القرآن الكريم فقلما ساق حجاجا أو أقام دليلا إلا أردفه بالمثل ليكون أدعى إلى الإقناع ، وأرجى للاقتناع .
(والله بكل شئ عليم) فيعطى هدايته من يستحقها ممن صفت نفوسهم ،

واستعدوا للتلقى أحكام الدين وآدابه ؛ وكذلك يجعل وسائلها على ضروب شتى على حسب اختلاف أحوال عباده ، لتقوم له الحجة عليهم .

وفي هذا وعد وبشارة لمن تدبر الأمثال ووعاها ، ووعيد وإنذار لمن لم يتفكر فيها ولم يكثر بها ، فإنه لا يصل إلى الحق ولا يهتدى لطريقه .

وخلاصة ذلك ما قاله ابن عباس : هذا مثل نور الله وهداه في قلب المؤمن ، فكما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تسمه النار ، فإذا مسته ازداد ضوءاً على ضوء - يكاد قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم ، فإذا جاءه ازداد هدى على هدى ونوراً على نور .

فِي بُيُوتٍ أذنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيََهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَزِيدَهُم مِّنْ فَضْلِهِ ، وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨)

شرح المفردات

المراد بالبيوت : المساجد ، وأذن : أمر . أن ترفع : أى أن تعظم وتظهر عن الأنجاس وعن اللغو من الأقوال . يسبح : أى ينزه ويقدمس . الغدو والغداة : أول النهار . والآصال : واحدها أصيل وهو العشى : أى آخر النهار . تلهيهم : أى تشغلهم وتصرفهم . تجارة : أى نوع من هذه الصناعة ، ولا يبيع : أى فرد من أفراد البياعات وخصه بالذكر لأنه أدخل في الإلهاء ، وإقام الصلاة : أى إقامتها لمواقيتها ،

وإيتاء الزكاة : أى المال الذى فرض إخراجه للمستحقين ، واليوم : هو يوم القيامة ،
وتتقلب فيه القلوب والأبصار : أى تضطرب وتتغير من الهول والفرع .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر - جلت آلاؤه - نوره لعباده وهدايته بإيام على أتم الوجوه - بين
هنا حال من حصلت لهم الهداية بذلك النور، وذكر بعض أعمالهم القلبية والحسية .

الإيضاح

(فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه) أى كشكاة فى بيوت أمر
الله بتطهيرها من الأنجاس الحسية والمعنوية ، كاللغو ورفث الحديث وأمر بذكره فيها
وإخلاص العبادة له .

روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : « المساجد بيوت الله فى الأرض تضىء
لأهل السماء كما تضىء النجوم لأهل الأرض » .

وعن عمرو بن ميمون قال : أدركت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
وهم يقولون : المساجد بيوت الله ، وحق على الله أن يكرم من زاره فيها .

(يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام
الصلاة وإيتاء الزكاة) أى ينزه الله ويقده فى أول النهار وآخره ، رجال لا تشغلهم
الدنيا وزخرفها ولا يبيعونهم وتجاراتهم عن ذكر ربهم وهو خالقهم ورازقهم ،
إذ يعلمون أن ما عنده خير لهم وأنفع مما بأيديهم ، فما عندهم ينفد ، وما عند الله باق ،
ويؤدون الصلاة فى مواقيتها على الوجه الذى رسمه الدين ، ويؤتون الزكاة المفروضة
عليهم تطهيراً لأنفسهم من الأرجاس .

ونحو الآية قوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ
عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ » الآية وقوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمٍ
الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ » .

ثم ذكر السبب في شغل أنفسهم بالعبادة فقال :

(يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار) أى إنهم يخافون عقاب يوم تضطرب فيه الأفئدة من الهول والفرع وتشخص فيه الأبصار من الملع والحيرة والرعب والخوف .

ونحو الآية قوله : « وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ » وقوله : « إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ » .

ثم بين مآل أمرهم وحسن عاقبتهم فقال :

(ليجزيهم الله أحسن ما عملوا) أى يفعلون هذه القربات من التسبيح والذكر وإيتاء الزكاة مع الخوف من عذاب يوم القيامة - ليثيبهم الله على حسناتهم التى فعلوها ، فرضها ونفلها واجبها ومستحبها .

ونحو الآية قوله : « إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ، فَوَقَّاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ، وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا » .
وفى قوله (أحسن ما عملوا) إيماء إلى أنه لا يجازيهم على مساوىء أعمالهم بل بغفرها لهم .

(ويزيدهم من فضله) أى يجزيهم بأحسن الأعمال ويضاعف لهم ما إيتاء كما قال : « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا » وقال : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ » وقال صلى الله عليه وسلم حكاية عن ربه : « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » .

ثم نبه إلى كمال قدرته وعظيم جوده وسعة إحسانه فقال :

(والله يرزق من يشاء بغير حساب) أى إنه تعالى يعطيهم غير أجرية أعمالهم من الخيرات ما لا يفي به الحساب ، فهم لما اجتهدوا فى الطاعة ، وخافوا ربهم أشد الخوف - جازاهم بالثواب العظيم على طاعتهم وزادهم الفضل الذى لا غاية له لخوفهم من قهره وشديد عذابه .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَاهُمْ كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ يُحْسِبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّىٰ
 إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ ، وَاللَّهُ سَرِيعُ
 الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كظلماتٍ في بحرٍ لَمِيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ
 مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ، ظلماتٌ بعضها فوق بعضٍ إِذَا أُخْرِجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ
 يَرَاهَا ، وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (٤٠) .

شرح المفردات

السراب : ما يرى في الغلاة من ضوء الشمس وقت الظهيرة يسرب ويجرى على
 وجه الأرض كأنه ماء ، والقَيْعَةُ والقاع : المنبسط من الأرض ، والظَّمَانُ : شديد
 العطش . لَمِيٍّ : أى ذى لَج (بالضم) واللج معظم الماء، والمراد بحر عميق الماء كثيره .
 يَغْشَاهُ : أى يغطيه . لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا : أى لم يقرب أن يراها فضلا عن أن يراها .

المعنى الجملى

بعد أن بين عز اسمه أحوال المؤمنين وأنهم في الدنيا يكونون في نور الله وبه
 يستمسكون بالعمل الصالح ، وفي الآخرة يفوزون بالنعيم المقيم والثواب العظيم - أردف
 ذلك ببيان حال أضدادهم وهم الكفار ، فذكر أنهم يكونون في الآخرة في أشد
 الخسران والبوار ، وفي الدنيا في ظلمات متراكمة بعضها فوق بعض ، وضرب لكتنا
 الحالين مثلا يوضحها أتم الإيضاح والبيان .

الإيضاح

(والذين كفروا أعماهم كسرابٍ بقية يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده
 شيئا) شبه الأعمال الصالحة التى يعملها من جعلوا توحيد الله وكذبوا بهذا القرآن

وَمِنْ جَاءَ بِهِ وَيظنون أنها تنفعهم عند الله وتنجيهم من عذابه، ثم تخيب في العاقبة
 آمالهم ويلقون خلاف ما قدروا - بالسراب يراه من اشتد به العطش فيحسبه
 ماء فيطلبه ويظن أنه قد حصل على ما يبغي، حتى إذا جاءه لم يجد شيئاً - هكذا
 حال الكافرين يحسبون أعمالهم نافعة منجية لهم من بأس الله، حتى إذا جاءهم
 العذاب يوم القيامة لم تنفعهم ولم تغنهم من عقابه إلا كما ينبتع بالسراب من اشتد
 ظمؤه، واحتاج إلى مائه يروى غلته .

ثم بين شديد عقابه بقوله :

(ووجد الله عنده فوفاه حسابه) أى ووجد عقاب الله الذى توعده به الكافر من أمامه
 وعندئذ تغير ما كان يظنه من النفع العظيم إلى ضرر محقق فجاءته الزبانية تعتله وتسوقه
 إلى جهنم وتسقيه الحميم والعساق . ونحو الآية قوله : « وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ
 فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا » .

(والله سريع الحساب) لا يشغله حساب عبد عن حساب آخر .

وخلاصة ماسلف - إن الخيبة والخسران فى الآخرة لمن عملوا صالح الأعمال
 فى الدنيا كصلة الأرحام وإغاثة الملهوفين وقوى الأضياف ونحو ذلك . وظنوا أنها
 تنجيهم من عذاب الله ، وهم مع ذلك جاحدو وحدانية ربهم مكذبون لرسله ،
 فما مثلهم إلا مثل من اشتد أومه ورأى السراب فخاله ماء وظن أنه قد وجد ضالته
 فسعى إليه ، حتى إذا جاءه لم يجد شيئاً ورجع يئساً حزين .

هذه حالهم فى الآخرة ، أما حالهم فى الدنيا فكما قال :

(أو كظلمات فى بحر لئيم يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب)
 أى ومثل أعمالهم التى عملت على غير هدى مثل ظلمات مترادفة فى بحر عميق مأوّه ،
 بعيد غوره ، يغطيه موج من فوقه موج من فوقه سحاب - فالظلمات هى أعمال
 الكافرين ، والبحر اللئيم قلوبهم التى غمرها الجهل وتغشها الخيرة والضلالة ،

فلا تعقل ما في السكون من آيات ولا تسمع عظة الناصحين ، ولا تبصر حجج الله ، فتلك ظلمات بعضها فوق بعض .

قال الحسن : الكافر له ظلمات ثلاث : ظلمة الاعتقاد ، وظلمة القول ، وظلمة العمل ، وقال ابن عباس : هي ظلمة قلبه وبصره وسمعه .

والخلاصة — إن الكافر لشدة إصراره على كفره تراكت عليه الضلالات ، حتى إن أظهر الدلالات إذا ذكرت عنده لا يفهمها ، فقلبه مظلم في صدر مظلم في جسد مظلم .

(ظلمات بعضها فوق بعض) أي ماتقدم ذكره ظلمات متراكمة ، فإن البحر يكون مظلم القعر جدا بسبب غور الماء ، فإذا تراكمت الأمواج ازدادت الظلمة ، فإذا كان فوق الماء سحاب يغطي النجوم ويحجب أنوارها بلغت الظلمة حدا عظيما . (إذا أخرج يده لم يكده يراها) أي إذا أخرج الناظر يده ، وهي أقرب ما يرى إليه ، لم يقرب أن يراها فضلا عن أن يراها .

(ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) أي ومن لم يرزقه الله إيمانا وهدى من الضلالة فما له هداية من أحد .

ونحو الآية قوله : « وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ » وقوله : « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا » .

وخلاصة ذلك — من لم يولّه الله نور توفيقه ولطفه فهو في ظلمة الباطل لانور له .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ ، كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢) .

شرح المفردات

يسبح: أى ينزه ويقدس ، صافات : أى باسطات أجنحتها فى الهواء ،
المصير: المرجع .

المعنى الجملى

لما وصف سبحانه قلوب المؤمنين بالنور والهداية وقلوب الكافرين بالظلمة -
أردف ذلك بذكر دلائل التوحيد وساق منها ثلاثة .

الإيضاح

(١) (ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض والطير صافات)
أى ألم تعلم بالدليل أن الله ينزهه آنا فأنا فى ذاته وصفاته وأفعاله جميع ما فى السموات
والأرض من العقلاء وغيرهم ، تنزيها تفهمه أرباب العقول السليمة ؛ إذ كل المخلوقات
فى وجودها وبقائها دالة على وجود خالق لها متصف بصفات الكمال منزه عن
صفات النقص .

وخص التنزيه بالذكر مع دلالة ما فهما على اتصافه بجميع أوصاف الكمال ،
من جراء أن سياق الكلام لتقبيح شأن الكفار الذين أدخلوا بالتنزيه ، فجعلوا
الجمادات شركاء له سبحانه ، ونسبوا له اتخذ الولد إلى نحو أولئك ، تعالى ربنا
عما يقول الكافرون علوا كبيرا .

كما ذكر الطير مع دخولها فى جملة ما فى الأرض ، من قبل أنها غير مستقرة
فيها ، ولا استقلالها ببديع الصنع وإنابتها عن كمال قدرة خالقها ولطف تدبير مبدعها ،
فإن منح تلك الأجرام الثقيلة الوسائل التى تتمكن بها من الوقوف فى الجو وتتحرك
كيف تشاء ، وإرشادها إلى طريق استعمالها بالقبض والبسط والتحرك يمينا
وشمالا - حجة واضحة الدلالة على كمال قدرة الصانع الجيد ، وحكمة المبدع المعيد .

(كلُّ قَدِّ عِلْمٍ صَلَاتُهُ وَتَسْبِيحُهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ) أى كل مصلٍّ منهم
ومسبح قد علم الله صلواته وتسبيحه ، لا يخفى عليه شىء من أفعالهم طاعتها ومعصيتها ،
محيط علمه بها ومجازيهم عليها .

وقد يكون المعنى - إن كل مصلٍّ ومسبح يعلم ما يجب عليه من الصلاة والتسبيح
الذى كلف به ، وليس بالبعيد أن يلهم الله الطير دعاءه وتسبيحه كما ألهمها سائر العلوم
الديقية التى لا يكاد العقلاء يهتدون إليها .

انظر إلى النحل كيف تبنى بيوتها المسدسة التى لا يتمكن من بنائها فطاحل
المهندسين ، وإلى العنكبوت كيف تفعل الحيل اللطيفة لاصطياد الذباب ، وإلى
الدب يستلقى فى ممر الثور ، حتى إذا قرب منه ورام نطحه شبت ذراعيه بقرنيه
ولا يزال ينهش ما بين ذراعيه حتى يشخه :

(والله ملك السموات والأرض وإلى الله المصير) أى إن الله تعالى ملك السموات
والأرض وهو الحاكم المتصرف فيهما إيجادا وإعداما بدءا وإعادة ، وإليه وحده
مصيركم ومعادكم ، فيوفيكم أجور أعمالكم التى عملتموها فى الدنيا ، فأحسنوا عبادته
واجتهدوا فى طاعته وقدموا لأنفسكم صالح الأعمال .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْجِي سَحَابًا مِّمًّا يُؤْتَفُ بِنَنَّهُ مِمًّا يُجْعَلُهُ رِكَامًا
فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ
بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنًا بَرَقَهُ يَذْهَبُ
بِالْأَبْصَارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي
الْأَبْصَارِ (٤٤) .

شرح المفردات

يزجى : يسوق برفق وسهولة ، يؤلف : أى يجمع بين أجزائه وقطعه ، ركاما : أى متراكما بعضه فوق بعض ، الودق : المطر ، من خلاله : أى فتوقه التى حدثت بالترام ، واحدها خلل كجبال وجبل ، من جبال : أى من قطع عظام تشبه الجبال ، والسنا : الضوء ، يذهب بالأبصار : أى يحطفها لشدة ضوئه وسرعة وروده ، وهو كقوله فى البقرة « يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ » يقبل الله الليل والنهار : أى يتصرف فيهما فيأخذ من طول هذا فى قصر ذلك حتى يعتدلا ويغير أحوالهما بالحر والبرد ، لأولى الأبصار : أى لأهل العقول والبصائر .

الإيضاح

(٢) هاتان الآيتان هما ثانى الدليلين على وحدانية الله وقدرته .

وخلاصتهما — ألم تعلم أيها الرسول الكريم أن الله يسوق السحاب بقدرته أول ما ينشئه ، ثم يجمع بين ما تفرق من أجزائه ثم يجعل بعضه متراكما فوق بعض ، فينزل المطر من فتوقه ، وحينما يُنزل منه قطعا كبيرة من الترد كأنها الجبال ، فيصيب بما ينزل منه من يشاء من عباده ، فينال الخير والنفع العميم أو الضرر الشديد إذا كان فوق الحاجة ، ويصرفه عن يشاء أن يصرفه ، وأن لهذا السحاب برقاً يضيء بشدة وسرعة حتى ليكاد يحطف الأبصار ، وهذا من أقوى الدلائل على كمال القدرة ، إذ فيه توليد الضد من الضد ، ففيه توليد النار من الماء .

وانظر أيضا إلى اختلاف الليل والنهار وتقلبهما بزيادة أحدهما ونقص الآخر ، وإلى تغير أحوالهما بالحرارة والبرودة ، إن فى هذا لعبرة لمن اعتبر ، وعظة لمن تأمل فيه ممن له عقل ، فهو واضح الدلالة على أن له مدبرا ومقلبا لا يشبهه شيء .
عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال الله تعالى : يؤذنبى

ابن آدم يسب الدهر ، وأنا الدهر ، بيدي الأمر ، أقلب الليل والنهار» أخرجه البخارى ومسلم .

وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ، يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥) .

الإيضاح

(٣) هذا هو ثالث الأدلة على التوحيد ، فقد استبدل أولاً بأحوال السماء والأرض ، وثانياً بالآثار العلوية ، وهنا استبدل بأحوال الحيوان فقال :

(والله خلق كل دابة من ماء) أى والله خلق كل حيوان يدب على الأرض من ماء هو جزء مادته .

وخص الماء بالذكر من بين ما يتركب منه من المواد ، لظهور احتياج الحيوان إليه ، ولا سيما بعد كمال تركيبه ، ولا متزاج الأجزاء القرابية به .

ثم فصل أقسام الحيوان مما يدب على وجه الأرض فقال :

(فمنهم من يمشى على بطنه) كالحيات والسمك وغيرها من الزواحف ، وسمى حركتها مشياً مع كونها تزحف زحفاً ، إشارة إلى كمال القدرة ، وأنها مع عدم وجود آلة المشى كأنها تمشى .

(ومنهم من يمشى على رجلين) كالإنسان والطيور .

(ومنهم من يمشى على أربع) كالأنعام والوحوش .

ولم يذكر سبحانه ما يمشى على أكثر من ذلك كالعناكب وغيرها من الحشرات ؛ لدخوله في قوله :

(يخلق الله ما يشاء) مما ذكر وما لم يذكر مع الاختلاف في الصور والأعضاء

والحركات والطبائع والقوى والأفاعيل .

(إن الله على كل شيء قدير) أى إن الله على إحداث ذلك وخلقه وخلق ما يشاء من الأشياء - لئذو قدرة فلا يتعذر عليه شيء أرادته .
وعلى الجملة فاختلف هذه الحيوانات فى الأعضاء والقوى ومقادير الأبدان والأعمار والأخلاق - لا بد أن يكون بتدبير مدبر حكيم مطلع على أحوالها وأسرار خلقها ، لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، تعالى الله عما يقول الجاحدون علوا كبيرا .

لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٦) .

المعنى الجملى

بعد أن ساق سبحانه ما يدل على وجوده من أحوال السماء والأرض والآثار العلوية وأحوال الحيوان - ذكر هنا أن هذه وغيرها آيات واضحات دالة على وجود الخالق المدبر للكون لاخفاء فيها .

الإيضاح

(لقد أنزلنا آيات مبينات) أى لقد أنزلنا عليك دلائل واضحات على طريق الحق والرشاد ، لكن لا يصل إلى فهمها إلا من أوتى بصيرة نيرة وفطرة سليمة تضىء له الفكر حتى يسير على نهج الحق ويتبعد عن الغي والضلال ، ومن ثم قال :
(والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) أى والله يرشد من يشاء إلى الطريق الذى لا عوج فيه ، وهو إخلاص العبادة له وحده والإنابة إليه .

وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ

يَنفَرِيهِمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مَّعْرُضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ
مُدْعِينَ (٤٩) أَلَيْسَ لِقُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْيِفَ اللَّهُ
عَالِيَهُمْ وَرَسُولَهُ ؟ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ
إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ
هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ
هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنْ أُورَثَهُمْ لِيُخْرِجُنَّ ،
قُلْ لَا تَقْسِمُوا ، طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣) قُلْ
أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ
مَا حُمِّلْتُمْ ، وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ، وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤) .

شرح المفردات

يتولى : أى يعرض ، مدعين : أى متقادين ، مرض : أى فساد من أصل
القطرة يحملهم على الضلال ، ارتابوا : أى شكوا فى نبوتك ، يحيف : أى يحور ،
الظالمون : أى الذين يريدون ظلم الناس وجحد حقوقهم ، ويخشى الله : أى فيما صدر
منه من الذنوب فى الماضى ، ويتقوه : أى فيما بقى من عمره ، جهد أيمانهم : أى أقصى
غايتهما ، من قولهم : جهد نفسه إذا بلغ أقصى وسعها وطاقتها ، تولوا : أى تولوا (يحذف
إحدى التائين) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه الأدلة الواضحة على توحيده وأتمّ بيانها، ثم ذكر أنه يهتدى
بها من يشاء من عباده إلى صراط مستقيم ، أعقبه بذكر من لم يهتد بها وهم المنافقون

الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، فيقولون : آمنا بالله وبالرسول ثم يفعلون ضد ما يقولون ، فإذا دعوا ليحكم بينهم الرسول فيما يتنازعون فيه أبوا وخافوا أن يحيف عليهم ، والمؤمن الصادق الإيمان إذا ما دعى إلى الله والرسول قال سمعا وطاعة ثم يتبن بعض أكاذيبهم التي يراءون بها ويدعون الإخلاص فيها ، فنها أنهم يحلفون أغاظ الأيمان إنهم مطيعون للرسول في كل ما يأمرهم به ، حتى لو أمرهم بالخروج والجهاد لبوا الأمر سريعا ، ثم أمر الرسول بنهيم عن الحلف والأيمان ؛ لأن طاعتهم معروفة لا تحتاج إلى يمين ، وبأن يقول لهم : أطيعوا الله حقا لا رياء ، فإن أبيتهم فإنما على التبليغ وعليكم السمع والطاعة ، فإن أظتموني اهتديتم ، وإن توليتهم فقد فعلت ما كلفت به ، وعلى الله الحساب والجزاء .

قال مقاتل : نزلت هذه الآية في بشر المنافق دعاه يهودى في خصومة بينهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعا هو اليهودى إلى كعب بن الأشرف ، ثم تحاكما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحكم لليهودى فلم يرض للمنافق بقضائه عليه السلام فقال نتحاكم إلى عمر رضى الله عنه ، فلما ذهب إليه قال له اليهودى : قضى لى النبي صلى الله عليه وسلم فلم يرض بقضائه ، فقال عمر للمنافق : أ كذلك ؟ قال بلى ، فقال مكانكما حتى أخرج إليكما ، فدخل رضى الله عنه بيته وخرج بسيفه فضرب به عنق المنافق حتى برد ، وقال : هكذا أقضى لمن لم يرض بقضاء الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

الإيضاح

(ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأظتمنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين) أى ويقول هؤلاء المنافقون ، صدقنا بالله وبالرسول وأظتمنا الرسول ثم يخالفون ذلك فيعرضون عن طاعة الله ورسوله ضلالاً منهم عن الحق ، وما أولئك بالمؤمنين المحلصين الثابتين على الإيمان ، بل هم ممن في قلوبهم مرض وقد مرتوا على النفاق يقولون بأستتم ما ليس في قلوبهم .

وأخلاصة ذلك — لا يدخل في زمرة المؤمنين من يقول آمنا بالله والرسول وأطعنا ثم يعرض عما تقتضيه الطاعة وينحاز إلى غير المؤمنين .
ثم بين هذا التولى بقوله :

(وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون) أى وإذا دعى هؤلاء المنافقون إلى كتاب الله وإلى رسوله ليحكم بينهم فيما اختصموا فيه بحكم الله — أعرضوا عن قبول الحق واستكبروا عن اتباع حكمه ، لأنه لا يحكم إلا بالحق .
ونحو الآية قوله : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ، يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أُنزِلَ مِنَ اللَّهِ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتِ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا » .

(وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين) أى وإذا كانت الحكومة لهم لاعلمهم جاءوا إلى الرسول مطيعين ، لعلمهم بأنه يحكم لهم ، لأنه لا يحكم إلا بالحق ، فإذا علمهم لم يكن عن اعتقاد أن حكمه الحق ، بل لأنه وافق هواهم ، ومن جراء هذا لما خالف الحق قصدوا عدلوا عنه إلى غيره .

ثم فصل ما يحتمل أن يكون هو السبب في عدولهم عن قبول حكمه صلى الله عليه وسلم بقوله :

(أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ؟) أى أسبب إعراضهم عن المحاكمة إليه صلى الله عليه وسلم أنهم مرضى القلوب بالكفر والنفاق ؟ أم سببه أنهم ارتابوا وشكوا في نبوته عليه السلام على ظهور أمرها ؟ أم سببه أنهم يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم في الحكم ؟ .
وأخلاصة ذلك — لا يخرج أمرهم عن أن يكون في القلوب مرض لازم بالكفر والنفاق ، أو عروض شك في الدين ، أو خوف من أن يجور الله ورسوله عليهم وأيا كان الأمر فهو كفر وضلال ، والله عليم بما انطوت عليه قلوبهم من المرض .

ثم أبطل السببين الأولين وأثبت الثالث فقال :

(بل أولئك هم الظالمون) أى ليس العدول إلا للسبب الأول فحسب ، فهم ما عدلوا إلا لما فى قلوبهم من المرض والنفاق وظلمهم لأنفسهم بمخالفة أمر ربهم ومعصيتهم له فيما أمرهم به من الرضا بحكم رسوله صلى الله عليه وسلم فيما أحبوا وكرهوا والتسليم لقضائه .

وبعد أن نفى عنهم الإيمان الحق بين صفات المؤمن الكامل فقال :

(إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون) أى ينبغى أن يكون قول المؤمنين إذا دعاهم الداعون إلى حكم الله وإلى حكم رسوله فيما بينهم وبين خصومهم - سمعنا كلامكم وأطعنا أمركم ، وأولئك هم الفائزون بكل مطلوب الناجون من كل مخوف .

وبعد أن رتب الفلاح على هذا النوع من الطاعة أتبعه ببيان أن كل طاعة لله ورسوله موجبة للفوز فقال :

(ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون) أى ومن يطع الله ورسوله فيما أمره به وترك ما نهىه عنه ، ويخش الله فيما صدر منه من الذنوب فيحمله ذلك على الطاعة وترك المعاصى ، ويتقه فى مستأنف أموره ، فأولئك هم الذين وصفوا بكل هذا هم الفائزون برضا الله عليهم يوم القيامة ، والآمنون من عذابه .

ثم حكى سبحانه نوعاً آخر من أكاذيب المنافقين بقوله :

(وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن) أى وحلفوا بالله جاهدين أيمانهم بالدين غايتها - لئن أمرتهم بالخروج للجهاد والغزو ليلبثنَّ الطلب وليخرجنَّ كما أمرت .

والخلاصة - إنهم أغلظوا الإيمان وشددوها فى أن يكونوا طوع أمرك ورهن إشارتك وقالوا : أينما كنت نكن معك ، فإن أقت أقتنا ، وإن أمرتنا بالجهاد جاهدنا . فرد الله عليهم وزجرهم عن التفوه بهذه الأيمان الفاجرة وأمره أن يقول لهم :

(قل لا تتقسموا) أى قل لهم : لا تحلفوا ، فإن العلم بما أنتم عليه لا يحتاج إلى قسم ويمين لوضوح كذبه .

ثم علل النهى عن الحلف بقوله :

(طاعة معروفة) أى لا تتقسموا لأن طاعتكم معروفة لنا ، فهى طاعة باللسان فحسب من غير مواطاة من القلب لها ، ولا يجهلها أحد من الناس .

ونحو الآية قوله : « يَخَافُونَ لَكُمْ أَنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ » وقوله : « اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَاهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ » .

ثم هددهم وتوعدهم على أيمانهم الكاذبة وأنه يجازيهم على أعمالهم السيئة ، ولا سيما ذلك النفاق المفضوح فقال :

(إن الله خبير بما تعملون) أى إنه تعالى لا تخفى عليه خافية من ظاهر أعمالكم وخافيا ، فيعلم ما تظهرونه من الطاعة المؤكدة بالأيمان الكاذبة ، وما تبطنونه من الكفر والنفاق والعزيمة على مخادعة المؤمنين ونحو ذلك من أفانين الشر والفساد التى دبرتموها .

ولما نبه سبحانه إلى خداعهم وأشار إلى عدم الاعتراض بأيمانهم - أمر بترغيبهم وترهيبهم مشيرا إلى الإعراض عن عقوبتهم بقوله :

(قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) أى مرهم باتباع كتاب الله وسنة رسوله ، وفى هذا إيماء إلى أن ما أظهوره من الطاعة ليس منها فى شيء .

ثم أكد الأمر السابق وبالغ فى إيجاب الامتثال به والحمل عليه بالترغيب والترهيب بقوله :

(فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم) أى فإن تولوا عن الطاعة بعد أن أمركم الرسول بها ، فما ضررتم الرسول بشيء ، بل ضررتم أنفسكم ، لأنه عليه

ما أمر به من تبليغ الرسالة وقد فعل ، وعليكم ما أمرتم به من الطاعة ، فإن أنتم لم تفعلوا وتوليتهم فقد عرّضتم أنفسكم لسخط الله وعذابه ، وإن أطعتموه فقد خرجتم من الضلال إلى الهدى ، فالنفع والضرر عائدان إليكم .

(وإن تطيعوه تهتدوا، وما على الرسول إلا البلاغ المبين) أى وإن تطيعوا الرسول فيما أمركم به أو نهاكم عنه - تهتدوا إلى الحق الموصل إلى كل خير ، المنجى من كل شر ، وما الرسول إلا ناصح وهادٍ ومبلغ لكم ، فإن أطعتموه لحظوظ أنفسكم أصبتم طريق الصواب ، وإن خالفتموه أوقعتم أنفسكم فى الهلكة .

والخلاصة - إن الرسول فعل ما يجب عليه من أداء الرسالة ، وقد بقى ما يجب عليكم أن تفعلوه .

ونحو الآية قوله : « فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ » وقوله : « فَذَكْرٌ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ » .

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) .

المعنى الجملى

بعد أن بين أن من أطاع الرسول فقد اهتدى إلى الحق ، ومن اهتدى إلى الحق فجزاؤه دار النعيم - أردف ذلك بوعده الكريم بأنه سيجعل المؤمنين المطيعين لله ورسوله خلفاء فى الأرض ويؤيدهم بالنصرة والإعزاز ويبدلهم من بعد خوفهم من العدو أمناً فيعبدون الله وحده وهم آمنون ، ومن جحد هذه النعم من بعد ذلك فقد غصى ربه وكفر أعمه .

روى الطبراني والحاكم وابن مردويه عن أبي بن كعب قال : « لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة ، فكانوا لا يبيتون إلا في السلاح ولا يصبحون إلا فيه ، فقالوا : ترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله ؟ » فنزلت الآية .

الإيضاح

(وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم) أى وعد الله المؤمنين منكم المصلحين لأعمالهم - ليورثهم أرض المشركين من العرب والعجم ، وليجعلنهم ملوكها وساستها ، كما استخلف بنى إسرائيل بالشام حين أهلك الجبارة وجعلهم ملوكها وسكانها .

وقد وفي سبحانه بوعده فإنه لم يمت عليه السلام حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب وأخذ الجزية من مجوس هجر ومن بعض أطراف الشام ، وهاداه هرقل ملك الروم ، والمقوقس في مصر ، والنجاشي ملك الحبشة .

ولما قبض صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى قام بالأمر بعده الخلفاء الراشدون فنهجوا منهجه ، وافتتحوا كثيرا من المشرق والمغرب ومزقوا ملك الأكاسرة وملكوا خزائنها واستعبدوا أبناء القياصرة ، وصدق قول رسوله : « إن الله زوى لى الأرض فرأيت مشارقتها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها » .

(ولم يكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم) أى وليجعلن دين الإسلام راسخا قويا ثابت القدم ، ويعظم أهله في نفوس أعدائه الذين يواصلون الليل بالنهار في التدبير لإطفاء أنواره لتعفو آثاره .

(وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا) أى وليغيرن حالهم مما هى عليه من الخوف إلى الأمن ، قال الربيع بن أنس : « كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بمكة نجوا من عشر سنين يدعون إلى الله وحده وإلى عبادته وحده لا شريك له سرا

وهم خائفون لا يؤمرون بالقتال ، حتى أمروا بعد بالهجرة إلى المدينة فقدموها فأمرهم الله بالقتال ، فكانوا بها خائفين يمسون في السلاح ويصبحون في السلاح فصبروا على ذلك ما شاء الله ، ثم إن رجلا من الصحابة قال يا رسول الله : أبدأ الدهر نحن خائفون هكذا ؟ أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لن تصبروا إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم في الملاء العظيم محتبيا ليس فيه حديدة ، فأنزل الله وعد الله الذين آمنوا « إلى آخر الآية .

ونحو الآية قوله : « وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِبَصْمِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » .

ثم أتبع ذلك بتعليل التمكين وما معه بقوله :

(يعبدوننى لا يشركون بى شيئا) أى يعبدوننى غير خائفين أحدا غيرى .
(ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) أى ومن جحد هذه النعم فأولئك هم الذين أنكروا فضل المنعم بها وتناسوا جليل خطرهما .

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ
(٥٦) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ
الْمَصِيرُ (٥٧) .

شرح المفردات

معجزين فى الأرض : أى جاعلين الله عاجزا عن إدراككم وإهلاككم وإن هربتم فى الأرض جميعها .

المعنى الجملى

بعد أن بشر المؤمنين بأنه سيمكن لهم فى الأرض ويجعل لهم من بعد الخوف أمناً - أردف ذلك بأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة شكراً له على ما أنعم به عليهم، وإحساناً إلى عباده البائسين الفقراء كما أحسن إليهم بتبديل ذلهم عزة وضعفهم قوة، ثم أعقبه برفع استبعاد تحقق الوعد السابق، مع كثرة عدد عدوهم وعددهم، وبعثذذكر أن ما لهم النار، وبأس القرار.

الإيضاح

(وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول أعلكم ترحمون) أى أقيموا أيها الناس الصلاة على الوجه الذى رسمه الدين فى موافقتها ولا تضيعوها، وآتوا الزكاة التى فرضها على أهلها، لما فيها من الإحسان إلى الفقير والمسكين وذوى البؤس والحاجة وأطيعوا رسول ربكم فيما أمركم به ونهاكم عنه، لعل ربكم أن يرحمكم فينجيكم من شديد عذابه.

ثم بين أن الكافرين سيحل بهم النكال ولا يجدون مهرباً مما أوعدهم به ربهم فقال:

(لا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الأرض) أى لا تظنن أيها الرسول أن الكافرين يجدون مهرباً فى الأرض إذا أردنا إهلاكهم، بل نحن قادرون على أخذهم والبطش بهم متى أردنا، والكلام من وادى قولهم: (اسمى يا جاره).

وبعثذذبين ما لهم فى الآخرة فقال:

(وماوهم النار ولبئس المصير) أى كما أنا سنضيق عليهم فى الدنيا وننكل بهم ولا يفلتون من عذابنا - سنجعل عاقبة أمرهم ناراً تالطى لا يوصلها إلا الأشتى الذى كذب وتولى.

والخلاصة — إنه سيلحقهم سخطنا في الدنيا وسينالهم النل والصغار ، وسيكون مصيرهم في الآخرة نارا وسعيرا وحما وغساقا جزاء وفاقا ، إنهم كذبوا بآياتنا كذابا .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ ، وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ ، وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ، ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ ، لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ، طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ ، بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨)

وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩) وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠) .

شرح المفردات

ما ملكت أيمانكم : يشمل العبيد والإماء أى الذكران والإناث ، الحلم : بسكون اللام وضمها أى وقت البلوغ إما بالاحتلام ، وإما ببلوغ الخامسة عشرة سنة من حلم بفتح اللام ، تضعون : أى تخلعون ، الظهيرة : وقت اشتداد الحر حين منتصف النهار ، والعورات : أى الأوقات التي يختل فيها استتركم ، من قولهم : أعور الفارس : إذا اختلت حاله . جناح : أى إثم وذنب ، طوافون عليكم : أى يطوفون عليكم للخدمة والمخالطة الضرورية ، القواعد : واحدها قاعد ، وهى المعجوز ، لا يرجون نكاحا أى لا يطعن فيه لكبر سنهن ، والتبرج : التكلف فى إظهار ما يخفى من الزينة ، من قولهم : سفينة بارج ، إذا كان لا غطاء عليها .

المعنى الجملى

بعد أن نهى فيما سلف عن دخول الأجنبي في البيوت إلا بعد الاستئذان والتسليم على أهلها ، وبين أن في ذلك الخير كل الخير لهم ، فإن لم يجدوا فيها أحدا رجعوا ؛ لما لذلك من كبير الأثر في المجتمع الإسلامى ، بصيانة الآداب العامة ومنع القيل والقال وحفظ الأعراض والأنساب .

استثنى في هذه الآيات دخول الأقارب بعضهم على بعض ودخول المملوكين على ساداتهم ، وبين أن الاستئذان لا يكون في جميع الأوقات ، بل في ثلاث أوقات هي عورات لأرباب البيوت لما فيها من رفع الكفاة وقلة التحفظ في السر ، ثم ذكر أن النساء الطاعنات في السن إذا لم يطمعن في الزواج فلا حرج عليهن إذا لم يستعملن الزينة ، وعليهن أن يتعففن جهد الطاقة .

روى أن سبب نزول الآية « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث وقت الظهيرة إلى عمر رضى الله عنه غلاما من الأنصار يقال له مُدْلَج ، وكان عمر نائما فدق عليه الباب ودخل فاستيقظ وجلس فانكشف منه شيء ، فقال : لو ددت أن الله تعالى نهى آباءنا وأبناءنا وخدمنا عن الدخول علينا في هذه الساعة إلا بإذن ، فانطلق معه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد الآية قد نزلت نحر ساجدا » وهذا أحد موافقات رأيه الصائب رضى الله عنه للوحى .

وقيل إن السبب ماروى من أن أسماء بنت أبى مرثد دخل عليها غلام كبير لها في وقت كرهت دخوله فيه فأنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إن خدمنا وعلمانا يدخلون علينا في حال نكرها فنزلت الآية .

الإيضاح

(يأيتها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات : من قبل صلاة الفجر ، وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ، ومن بعد صلاة

العشاء) أى لا يدخل أيها المؤمنون فى بيوتكم عبيدكم وإماؤكم ثلاث مرات فى ثلاثة أوقات من ساعات ليلتكم ونهاركم إلا بإذن : قبل صلاة الفجر لأنه وقت القيام من المضاجع وطرح ثياب النوم ولبس ثياب اليقظة ، وكل ذلك مظنة انكشاف العورة ، وحين تخلعون ثيابكم التى تلبسونها وقت الظهيرة ، ومن بعد صلاة العشاء ، لأنه وقت خلع ثياب اليقظة ولبس ثياب النوم .

وخص هذه الأوقات الثلاثة ، لأنها ساعات الخلو ووضعت الثياب والاتحاف باللعاف .

وهكذا حكم حال الذين لم يبلغوا الحلم من أطفالكم .

ثم علل طلب الاستئذان بقوله :

(ثلاث عورات لكم) أى لأن هذه الأوقات الثلاثة ثلاث عورات لكم يختل فيها التستر عادة .

وبعد أن بين حكم هذه الأوقات الثلاث بين حكم ما عدا ذلك فقال :

(ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن) أى ليس عليكم معشر أرباب البيوت ولا على الذين ملكت أيمانكم من الرجال والنساء ولا على الذين لم يبلغوا الحلم من أطفالكم حرج ولا إثم فى غير هذه العورات الثلاث .

والخلاصة - لاحرج ولا إثم على الناس أن يدخل عليهم مماليتهم البالغون وصبيانهم الصغار بغير استئذان بعد هذه الأوقات الثلاث - أما من بلغ الحلم فإنه لا يدخل على الرجل وأهله إلا بإذن على كل حال .

ثم علل الإباحة فى غيرها بقوله :

(طوافون عليكم بعضكم على بعض) أى هؤلاء المالك والمالكة والصبيان الصغار يدخلون ويخرجون على مواليتهم وأقربائهم فى منازلهم غدوة وعشية بغير إذن ، لأنهم يخدمونهم ، أو لاحتياج الأقارب إليهم ، كما أن السادة والأقارب يطوفون على ذوى قرباتهم وماليتهم إذا عرضت لهم حاجة إليهم .

ثم بين فضله على عباده في بيان أحكام دينهم فقال :

(كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم) أى ومثل هذا التبيين لتلك الأحكام يبين لكم شرائع دينكم وأحكامه ، والله عليم بما يصلح أحوال عباده ، حكيم في تدبير أمورهم ، فيشرع لهم ما يصلح أحوالهم في المعاش والمعاد .
 روى سعيد بن جبير عن ابن عباس : ترك الناس ثلاث آيات فلم يعملوا بهن (بأيتها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم) الآية ، وقوله في النساء : (وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى) الآية ، وقوله في الحجرات : « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ » .

وعن عكرمة عن ابن عباس أن رجلين سألاه عن الاستئذان في العورات الثلاث التي أمر الله بها في القرآن فقال : إن الله ستير يحب الستر ، كان الناس ليس لهم ستور على أبوابهم ولا حجال في بيوتهم ، فرمى نجا الرجل خادمه أو ولده أو يتيمه في حجره وهو على أهله ، فأمرهم الله أن يستأذنوا في تلك العورات ، ثم بسط الله عليهم الرزق فاتخذوا الستور واتخذوا الحجال فرأوا أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذي أمروا به .

ولما بين الله حكم الأرقاء والصبيان الذين هم أطوع للأمر وأقبل لكل خير - أتبعه بحكم البالغين الأحرار بقوله :

(وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم) أى وإذا بلغ الصغار من أولادكم وأقربائكم الأحرار سن الاحتلام وهو خمس عشرة سنة فلا يدخلوا عليكم في كل حين إلا بإذن لاني أوقات العورات الثلاث ولا في غيرها ، كما استأذن الكبار من ولد الرجل وأقاربه .

وذكر الله في هذه الآية حكم الأطفال إذا بلغوا ولم يذكر حكم ما ملكت أيماننا مع أن ما قبلها فيه ذكر المالك والأطفال - لأن حكم ما ملكت اليمين واحد كبارهم وصغارهم ، وهو الاستئذان في الساعات الثلاث التي ذكرت في الآية قبل .

ثم أكد نعمه عليهم ببيان أحكام دينهم بقوله :

(كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم) أى كما بين لكم ما ذكر غاية البيان ، يبين لكم ما فيه سعادتكم فى دنياكم وآخرتكم ، وهو العليم بأحوال خلقه ، الحكيم فيما يدبر لهم .

ولما بين سبحانه حكم الحجاب حين إقبال الشباب أتبعه بحكمه حين إدباره فقال :
(والتواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة) أى والنساء اللواتى قعدن عن الولد كبراً ، وقد يؤسن من التبعيل فلا يطمن فى الأزواج ، فليس عليهن إثم ولا حرج أن يخلعن ثيابهن الظاهرة كالملحفة والجلباب الذى فوق الحمار إذا كن لا يبيدين زينة خفية كشعر ونحو وساق لدى المحارم وغير المحارم من الغرباء .

وخلاصة ذلك — لاجتراح على التواعد من النساء أن يجلسن فى بيوتهن بدرع وشمار ويضعن الجلباب ، ما لم يقصدن بذلك الزينة وإظهار ما يجب إخفاؤه — هذا إذا لم يكن فيهن بقية من جمال تورث الشهوة ، فإن كان فيهن ذلك فلا يدخلن فى حكم الآية .

(وأن يستعففن خير لهن) أى وإن تعففن عن وضع جلايبهن وأردتيهن ، فلبسها كان ذلك خيراً لهن من خلعهما ، لتباعدن حينئذ عن التهمة ، ولقد قالوا : لكل ساقطة فى الحى لاقطة .

ثم توعد من يخالف تلك الأوامر فقال :

(والله سميع عليم) أى والله سميع بما يجرى بينهن وبين الرجال من الأحاديث ، عليم بمقاصدهن لا تخفى عليه خافية من أمرهن ، فاحذروا أن يسؤل لكم الشيطان مخالفة ما به أمر وعنه نهى .

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ
 حَرْجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ
 أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
 أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ
 أَوْ مَا مَلَكَتْهُم مَفَاتِحُهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ، لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا
 جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ، فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَاءَمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ
 عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ
 تَعْقِلُونَ (٦١) .

شرح المفردات

الحرج لغة: الضيق ، ويراد به في الدين الإثم ، ماملكتكم مفاتحه : أى ما كان
 تحت تصرفكم من بستان أو ماشية بطريق الوكالة أو الحفظ ، والصديق : يطلق على
 الواحد والجمع كالخليط والعدو ، جميعا : أى مجتمعين ، أشتاتا : أى متفرقين ، واحدهم
 شتيت ، على أنفسكم : أى على أهل البيوت ، طيبة : أى تطيب بها نفس المستمع .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن المالك والصبيان الدخول في البيوت في غير العورات
 الثلاث بلا استئذان ولا إذن من أهل البيت - ذكر هنا أنه لا حرج على أهل هذه
 الأعدار الثلاثة في تركهم للجهاد وما يشبهه ، وذلك يستلزم عدم الاستئذان منه
 صلى الله عليه وسلم فلهم القعود عندئذ من غير استئذان ولا إذن ، كما لا حرج عن
 ذكرها بعدهم في الأكل من البيوت المذكورة في الآية .

قال صاحب الكشاف : والكلام على هذا التفسير صحيح لالتقاء الطائفتين في أن كلا منهما منفي عنه الحرج ، ومثاله أن يستفتى مسافر عن الإفطار في رمضان وحاجٌّ مُفْرَد عن تقديم الحلق على النحر فتقول : ليس على المسافر حرج أن يفطر ولا عليك يا حاجٌّ أن تقدم الحلق على النحر .

قال الحسن : أنزلت الآية في ابن أم مكتوم وضع الله عنه الجهاد وكان أعمى . وقال مقاتل : نزلت في الحارث بن عمرو ، وكان قد خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غازياً وخلف مالك بن يزيد على أهله ، فلما رجع وجده مجهوداً فسأله عن حاله فقال : تخرجت أن آكل من طعامك بغير إذنك .

الإيضاح

(ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج) أى ليس على هؤلاء الثلاثة إثم في ترك الجهاد اضعفهم وعجزهم ، قاله عطاء وزيد بن أسلم . ونحو الآية قوله في سورة براءة : « لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ » .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن المراد من الحرج المنفى في الآية الحرج في الأكل ، ذلك أنه لما نزل قوله تعالى : « وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ » تخرج المسلمون عن مؤاكلة الأعمى لأنه لا يبصر موضع الطعام الطيب ، والأعرج لأنه لا يستطيع المزاحمة على الطعام ، والمريض لأنه لا يستطيع استيفاء الطعام فأنزل الله هذه الآية . والمعنى على هذه الرواية : ليس في مؤاكلة الأعمى ولا ما بعده حرج .

(ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم) أى لا حرج عليكم أن تأكلوا من البيوت التي فيها أزواجكم وعيالكم ، ويشمل ذلك بيوت الأولاد ، لأن بيت الولد كبيته ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم « أنت ومالك لأبيك » وقوله : « إن أطيب ما يأكل المرء من كسبه ، وإن ولده من كسبه » .

وفائدة ذكر قوله : (على أنفسكم) الإشارة إلى أن الأكل المذكور مع أنه لا حرج فيه لا يخل بقدر من له شأن فقد كثرت إقحام (النفس) في ذوى القدر كقوله : « كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ » ولم يقل : كتب ربكم عليه الرحمة ، وقوله في الحديث القدسي « يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسى » ولم يقل : حرمت الظلم على .

وذكر هذا الحكم وهو معلوم ، ليعطف عليه غيره في اللفظ ، وليساويه ما بعده في الحكم .

(أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم) لما علم بالعادة أن هؤلاء تطيب نفوسهم بأكل من يدخل عليهم من الأقارب .

(أو ما ملكتم مفاتيحه) عنى بذلك وكيل الرجل وقيمه في ضيعته وماشيته ، فلا حرج عليه أن يأكل من ثمر الضيعة ويشرب من لبن الماشية ولكن لا يحمل ولا يدخر ، وهذا إذا لم يجعل له أجرا على ذلك ، فإن جعل له أجرا فلا يخل له أكل شيء منها .

(أو صديقكم) أى أو بيوت أصدقاتكم الذين يصدقونكم المودة وتصدقونهم ، هذا إذا علم رضاهم بذلك بالإذن أو بشاهد الحال ، ولا فرق بينهم وبين غيرهم إذا وجد الإذن .

قال ابن زيد : هذا شيء قد انقطع ، إنما كان في أوله ولم يكن لهم ستور أبواب وكانت الستور مرخاة فرما دخل الرجل البيت وليس فيه أحد وربما وجد الطعام وهو جائع فسوغ له أن يأكل منه ، ثم قال ذهب ذلك اليوم ، البيوت فيها أهلها ، فإذا خرجوا أغلقوا أه .

وعلى هذا ، فالمعنى يجوز الأكل من بيوت هؤلاء وإن لم يحضروا إذا علم رضاهم به بصريح اللفظ أو بالقرينة وإن كانت ضعيفة .

وإنما خص هؤلاء بالذكر ، لأنهم اعتادوا التبسط بينهم ، والرضا فيهم محقق غالباً .

وعن جعفر الصادق رضى الله عنه . من عظم حرمة الصديق أن جعله الله تعالى من الأنس والثقة والانبساط ورفع الحشمة بمنزلة النفس والأب والأخ .

وقيل لأفلاطون : من أحب إليك : أخوك أم صديقك ؟ فقال لا أحب أخى إلا إذا كان صديقى ، ولكن أتى هو ؟ فقد أثر عن هشام بن عبد الملك أنه قال : نلت ما نلت حتى الخلافة ، وأعوزنى صديق لا أحشم منه .

ثم استأنف سبحانه حكماً آخر من نوع ما قبله فقال :

(ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً) أى لا حرج عليكم أن تأكلوا مجتمعين أو متفرقين ، روى عن ابن عباس والضحاك وقتادة أنها نزلت في بنى ليث ابن عمرو بن كنانة تخرجوا أن يأكلوا طعامهم متفرقين ، وكان الرجل منهم يمكث طوال يومه لا يأكل حتى يجد ضيفاً يأكل معه ، فإن لم يجد من يؤاكله لم يأكل شيئاً ، وربما قعد الرجل منهم والطعام بين يديه لا يتناوله إلى الرواح ، وقد تكون معه الإبل الحقل فلا يشرب من ألبانها حتى يجد من يشاربه ، فإذا أمسى ولم يجد أحداً أكل ، وفي مثل هذا يقول حاتم :

إذا ما صنعت الزاد فالتمسى له أكيلاً فإني لست آكله وحدى

وفي الحديث : « شر الناس من أكل وحده ، وضرب عبده ، ومنع رفته » وإنما ذم هذا لأنه يخل بالقرى .

ثم شرع سبحانه يبين ما ينبغى رعايته حين دخول البيوت بعد أن ذكر الرخصة فيه فقال :

(فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم) أى فإذا دخلتم بيتاً من هذه البيوت فليسلم بعضكم على بعض .

وفي التعبير عن أهل تلك البيوتات (بأنفسكم) إيماء إلى السبب الذى اقتضى إباحة الأكل من تلك البيوت ، وأنه إنما كان لأن الداخل فيها كأنه داخل في بيته لما بينهما من قرابة أو نحوها .

(تحية من عند الله مباركة طيبة) أى حيوا تحية ثابتة بأمره تعالى مشروعة من لدنه ، يرجى بها زيادة الخير والثواب ويطيب بها قلب المستمع .
وعن جابر بن عبد الله قال : « إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم تحية من عند الله مباركة طيبة » أخرجه البخارى وغيره .
روى الحافظ أبو بكر البزار عن أنس قال : أوصانى النبي صلى الله عليه وسلم بخمس خصال قال : « يا أنس ، أشبع الوضوء يزد فى عنرك ، وسلم على من لقيك من أمتى تكثر حسناتك ، وإذا دخلت (يعنى بيتك) فسلم على أهلك يكثر خير بيتك ، وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأوابين قبلك ، يا أنس ، ارحم الصغير ووقر الكبير تكن من رفقاء يوم القيامة » .
(كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعملون) أى هكذا يفصل الله لكم معالم دينكم ، كما فصل لكم فى هذه الآية ما أحل لكم فيها وعرفكم سبيل الدخول على من تدخلون عليه ، لئلى تفقهوا أمره ونهيه وأدبه ، وبذا تفوزون بسعادة الدارين ويكون لكم اللقام المحمود عند ربكم .

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أُمَّةٍ
جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ
يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ
مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٢) لَا تَجْمَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ
بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ، قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَ مِنْكُمْ
لِوَأْذَا ، فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، قَدْ يَعْلَمُ

مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ، وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ؛ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٤) .

شرح المفردات

أمر جامع : أى خطب جليل يستعان فيه بأرباب التجارب والآراء كقتال عدو أو تشاور في حادث قد عرض ، والتسلل : الخروج من البيت تدريجاً وخفية ، واللواذ والملاوذة : التستر، يقال لاذ فلان بكذا، إذا استتر به ، والمخالفة : أن يأخذ كل واحد طريقاً غير طريق الآخر في حاله أو فعله ، فتنة : أى بلاء وامتحان في الدنيا ، عذاب أليم : أى عذاب مؤلم موجه في الآخرة .

المعنى الجملى

بعد أن أمر المؤمنين بالاستئذان عند الدخول أمرهم بالاستئذان حين الخروج ولا سيما إذا كانوا في أمر جامع مع الرسول صلى الله عليه وسلم كتشاور في قتال أحد أو في حادث عرض ، وبيّن أن من يفعل ذلك فهو من كامل الإيمان ، ثم أمر رسوله أن يأذن لمن شاء منهم إذا استأذنه ، ثم أمر المؤمنين أن يبجلوا نبيهم ولا يسموه باسمه بل يقولوا يا نبي الله ، ويا رسول الله ، وليحذروا أن يخالفوا أمره وسنته وشريعته ، بل عليهم أن يزينوا أقوالهم وأفعالهم بأقواله وأفعاله ، فما وافق ذلك قبل وما خالفه فهو مردود على فاعله وقائله كأننا من كان ، وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » .

الإيضاح

(إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذوه) أى ما المؤمنون حق الإيمان إلا الذين صدقوا الله ورسوله ،

وإذا كانوا مع رسوله على أمر يجمع جميعهم من حرب حضرت أو صلاة اجتمع لها أو تشاور في أمر قد نزل ، لم ينصرفوا عما اجتمعوا له حتى يستأذنوا الرسول صلى الله عليه وسلم .

وهذا أدب على نهج سابقه ، فكما أرشدهم من قبل إلى الاستئذان حين الدخول ، أمرهم بالاستئذان حين الانصراف ، ولا سيما إذا كانوا في أمر جامع ، روى الترمذى والنسائى عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم ، فإذا أراد أن يقوم فليسلم ، فليست الأولى بأحق من الآخرة » .

ولما كان الإذن كالدليل على كمال الإيمان والمميز للمخلص من غيره أعاده مؤكداً بأسلوب أبلغ فقال :

(إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله) أى إن الذين لا ينصرفون إذا كانوا معك أيها الرسول في أمر جامع إلا بإذنك لهم ، طاعة منهم لله ولك ، وتصديقاً بما أتيتهم به من عنده - أولئك هم المؤمنون حقا .

ولما ذكر ما يلزم المؤمن من الاستئذان أعقبه بما يفعله الرسول حينئذ فقال :

(فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم) أى فإذا استأذنوك لبعض ما يعرض لهم من مهام أمورهم فأذن لمن شئت منهم أن ينصرف لقضاء ما عرض له ، على حسب ما تقتضيه المصلحة التى تراها ، كما وقع لعمر رضى الله عنه حين خرج مع النبي صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك ، حيث استأذن فى الرجوع إلى أهله فأذن له صلى الله عليه وسلم وقال له : ارجع فليست بمنافق .

(واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم) أى وادع الله أن يتفضل عليهم بالعتق عن تبعات ما بينه وبينهم ، إنه غفور لذنوب عباده التائبين ، رحيم بهم أن يعاقبهم عليها بعد توبتهم منها .

وفي هذا إيماء إلى أن الاستئذان وإن كان لعدر قوى - فيه بعض الملامة لما فيه من تقديم شئون الدنيا على أمور الآخرة، كما أن فيه احتفالا برسوله صلى الله عليه وسلم إذ جعل الاستئذان للذهاب عنه ذنبا محتاجا إلى الاستغفار، فضلا عن الذهاب بلا إذن، ورتب الإذن على الاستئذان لبعض شأنهم لاعلى الاستئذان لأى أمر مهما كان، مهما كان أو غير مهم، على أنه علق الإذن بالمشيئة.

وبعد أن ظهر في هذه السورة شرف الرسول، ولا سيما في هذه الآيات التي بهرت العقول - أردف هذا بما يؤكده فقال:

(لاتجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) أى لاتقيسوا أيها المؤمنون دعاءه عليه السلام إياكم بدعاء بعضكم بعضا فى المسألة والرجوع من مجلسه بغير استئذان، فإن هذا محرم عليكم.

ثم توعد المنصرفين خفية بغير استئذان فقال:

(قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لوأذا) أى قد يعلم الله الذين يخرجون متسللين من المسجد فى الخطبة واحدا بعد واحد من غير استئذان خفية مستترين بشيء، وإن علمهم هذا إن خفى على الرسول صلى الله عليه وسلم فلا يخفى على من يعلم السر والنجوى ومن لا يعزب عنه مثقال ذرة، ويعلم الدواعى التى تحملهم على ذلك، ولديه الجزاء على ما يفعلون، وكان من المنافقين من يشغل عليه استماع الخطبة والجلوس فى المسجد فإذا استأذن أحد من المسلمين قام المنافق إلى جنبه يستتره فأنزل الله الآية، رواه أبو داود.

(فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) أى فليمتق الله من يفعلون ذلك منكم، فينصرفون عن رسول الله بغير إذنه، أن تصيبهم محنة وبلاء فى الدنيا أو يصيبهم عذاب مؤلم موجه فى الآخرة، بأن يطعم الله على قلوبهم فيتأدوا فى العصيان ومخالفة أمر الرسول، فيدخلهم النار وبئس القرار.

والآية تعم كل من خالف أمر الله وأمر رسوله وحمد على التقليد من بعد ماتين له الهدى وظهر له الصواب من الخطأ .

وبعد أن أقام الأدلة على أنه نور السموات والأرض ، ثم حذر كل مخالف لرسوله صلى الله عليه وسلم - ختم السورة ببيان أنه المالك لموجودات بأسرها خلقا وملكا وتصرفا وإيجادا وإعداما بدءا وإعادة ، فقال :

(ألا إن لله مافى السموات والأرض ، قد يعلم ما أتمم عليه) أى إنه تعالى مالك السموات والأرض وإنه عالم بما يعمل العباد كما قال : « وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ، وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » وقال تعالى : « أَفَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ؟ »

ثم هدد وتوعد فقال :

(ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا) أى ويوم يرجع الخلاق إلى ربهم حين العرض والحساب يخبرهم بما فعلوا في الدنيا من جليل وحقير وكبير وصغير كما قال : « يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ » وقال : « وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا » .

وبعدئذ ذكر ما هو كالدليل على ما سلف بقوله :

(والله بكل شيء عليم) أى إنه سينبئهم بما عملوا في حياتهم الأولى ، لأنه ذو علم بكل شيء وإحاطة به وهو موفى كل عامل أجر عمله ، يوم يرجعون إلى حكمه ، إذ لا حكم يومئذ إلا هو .

عن عقبة بن عامر قال : « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ هذه الآية في خاتمة النور، وهو جاعل أصبعيه تحت عينيه يقول بكل شيء بصير» أخرجه الطبرانى وغيره ، قال السيوطى بسند حسن .
وصل ربنا على محمد النبي الأمى وعلى آله .

بجمل ما حوته السورة الكريمة من الأغراض والمقاصد

- (١) عقوبة الزانى والزانية .
- (٢) عقوبة قاذفى الحصنات الغافلات المؤمنات .
- (٣) حكم قذف الزوجات .
- (٤) قصص الإفك وبراءة أم المؤمنين عائشة .
- (٥) آداب الزيارة .
- (٦) أمر المؤمنين بغض الأبصار وحفظ الفروج .
- (٧) نهى النساء عن إبداء زينتهن لغير بعولتهن الخ .
- (٨) أمر المؤمنين بإنكاح الأيامى من الرجال والنساء ، فالجتمع الإسلامى كأنه أسرة واحدة .
- (٩) أمر من لم تتوافر له وسائل النكاح لعدم وجود المال أو سواه بالعفة حتى يغنيه الله .
- (١٠) بيان أن الأعمال الصالحة التى يعملها الكافرون فى الدنيا لاتجدى لهم نفعا يوم القيامة ، بل تكون كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا .
- (١١) الأدلة التى نصها الله فى الأكوان علويها وسفليها شاهدة بوحدانيته .
- (١٢) المناقون يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم .
- (١٣) وصف المؤمنين الصادقين .

- (١٤) وعد الله عباده المؤمنين بأنه سيستخلفهم في الأرض وينشر دينهم الذي ارتضى لهم .
- (١٥) استئذنان الموالى والأطفال في أوقات ثلاث إذا أرادوا الدخول على أهلهم .
- (١٦) رفع الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض في الجهاد .
- (١٧) لاحرج في الأكل من بيوت الآباء والأمهات الخ بلا إذن .
- (١٨) نهى المؤمنين عن الانصراف من مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كانوا معه في أمر جامع .
- (١٩) إباحة إذنه لهم إن شاء حين الطلب .
- (٢٠) بيان أن مجلس الرسول مبعث موقر وليس كمجلس المؤمنين بعضهم مع بعض .

سورة الفرقان

هي مكية إلا ثلاث آيات نزلت بالمدينة ، وهي ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، وعدد آياتها سبع وسبعون ، ونزلت بعد سورة يس .
ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

(١) إنه سبحانه اختتم السورة السابقة بكونه مالكاً لما في السموات والأرض مصرفاً له على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة مع النظام البديع والوضع الأنيق ، وأنه سبحانه يبدل على تعاليه في ذاته وصفاته وأفعاله وعلى حبه نظير عبادته بإنزال القرآن لهم هادياً وسراجاً منيراً .

(٢) اختتم السورة السالفة بوجوب متابعة المؤمنين للرسول صلى الله عليه وسلم مع مدحهم على ذلك وتحذيرهم من مخالفة أمره خوف الفتنة والعذاب الأليم ، وافتتح هذه بمدح الرسول وإنزال الكتاب عليه لإرشادهم إلى سبيل الرشاد ، وذم الجاحدين لنبوتهم بقولهم : إنه رجل مسحور ، وإنه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق إلى آخر ما قالوا .

(٣) في كل من السورتين وصف السحاب وإنزال الأمطار وإحياء الأرض الجزز فقال في السالفة : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا مَّحْمُودًا » وقال في هذه : « وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا مَّحْمُودًا » .

(٤) ذكر في كل منهما وصف أعمال الكافرين يوم القيامة وأنها لا ينجزهم فتيلاً ولا قطميراً فقال في الأولى : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعةٍ مَّحْمُودًا » وقال في هذه : « وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا » .

(٥) وصف النشأة الأولى للإنسان في أثنائها فقال في الأولى : « وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ » وفي الثانية : « وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١)
الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ
فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا (٢)

شرح المفردات

تبارك : من البركة ، وهي كثرة الخير لعباده ، بإنعامه عليهم وإحسانه إليهم كما قال
« وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا » والفرقان : هو القرآن ، سمي بذلك لأنه فرق
في الإنزال كما قال : « وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ » على عبده :
أي على رسوله صلى الله عليه وسلم ، ووصفه بذلك تشريفًا له بكونه في أقصى مراتب
العبودية ، وتبليغها إلى أن الرسول لا يكون إلا عبدا لله ، وفيه رد على النصارى
الذين يدعون ألوهية عيسى عليه السلام ، للعالمين : أي الثقلين من الإنس والجن ،
فقدره : أي هيأه لما أعدده له من الخصائص والأفعال :

المعنى الجملى

حوت هذه السورة توحيد الله وإثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وبيان
صفات النبي ، والرد على من أنكروا نبوته صلى الله عليه وسلم ، ثم بيان أحوال يوم
القيامة وما يكون فيها من الأهوال ، ثم ختمت بأوصاف عباده الخالصين الذي يمشون
على الأرض هونا ، ثم ذكر جلال الله وتصرفه في خلقه وتفرد الخلق والتقدير

الإيضاح

(تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا) حدد سبحانه نفسه
على ما نزله على رسوله من القرآن الكريم لينذره الثقلين الجن والإنس ويخوفهم

بأسه ، وإنما ذكر الإنذار ولم يذكر التبشير مع أن الرسول مرسل بهما ، من قِبَل أن
السورة بصدد بيان حال المعاندين المتخذين لله ولدا والطاعنين في كتبه ورسله
واليوم الآخر .

وخلاصة ذلك — تعالى الله عما سواه في ذاته وصفاته وأفعاله التي من جملتها
تنزيل القرآن المعجز الناطق بملوئشأنه ، وسمو صفاته ، وابتناء أفعاله على أساس الحكم
والمصالح ، على عبده محمد صلى الله عليه وسلم لينذر به الناس ويخوفهم بأس الله ووقائمه
بين خلا قبلهم من الأمم .

ونحو الآية قوله : « اتَّخَذُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ
عِوَجًا قِيمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ » .
ثم وصف سبحانه نفسه بأربع صفات من صفات الكبرياء :

(١) (الذي له ملك السموات والأرض) أي له السلطان القاهر عليهما ، فله
القدرة التامة فيهما وفيما حوياه إيجادا وإعداما وأمرًا ونهيًا على حسب ما تقيضيه
مشيئته المبينة على الحكم والمصالح .

(٢) (ولم يتخذ ولدا) أي ولم يكن له ولد كما زعم الذين قالوا ذلك للمسيح
وعزير والملائكة ، كما حكى الله عنهم في قوله : « وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ
وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ » وقوله : « أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ . أَمْ خَافْنَا
الْمَلَائِكَةَ إِنَّا نَأْتِيهِمْ شَاهِدُونَ . أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ آفِكِهِمْ يَقُولُونَ . وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ
لَكَاذِبُونَ . أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ؟ » .

(٣) (ولم يكن له شريك في الملك) أي ما كان لله شريك في ملكه وسلطانه
يصلح أن يعبد من دونه ، فأفر دوا له العبادة وأخلصوها له دون كل ما تعبدون من
دونه من الآلهة والملائكة والجن والإنس .

وفي هذا رد على مشركي العرب الذين كانوا يقولون في تلبيتهم للحج : « لبّيك
لاشريك لك ، إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك » .

(٤) (وخلق كل شيء فقدره تقديرا) أى وأوجد كل شيء على حسب ما اقتضته إرادته المبنية على الحكم البالغة ، وهى أدل ما أراد به من الخصائص والأفعال التى تليق به ، فأعد الإنسان للإدراك والفهم والتدبير فى أمور المعاش والمعاد واستنباط الصناعات المختلفة والانتفاع بما فى ظاهر الأرض وباطنها ، وأعد صنوف الحيوان للقيام بأعمال مختلفة تليق بها وبأدراكها .

والخلاصة — إن كل شيء مما سواه مخلوق مربوب ، وهو خالق كل شيء وربّه ومليكه وإلهه ، وكل شيء تحت قهره وتسخيره وتقديره ، ومن كان كذلك فكيف يخطر بالبال أو يدور فى الخلد كونه سبحانه والدّاله أو شريكاً له فى ملكه كما قال : « بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ؟ » الآية .

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ،
وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً
وَلَا نَشُورًا (٣)

الإيضاح

بعد أن وصف سبحانه نفسه بصفات العزة والجلال ، وبين وجه الحق فى ذلك أردفه بحكاية أباطيل عبدة الأوثان الذين اتخذوا من دونه آلهة ، تعجيباً لأولى النهى من حالهم ، وتنبية إلى خطأ أفعالهم ، وتسفيهاً لأحلامهم ، فقد انحرفوا عن منهج الحق وركبوا المركب الذى لا يركبه إلا كل آفن الرأى ، مسلوب العقل .

وقد أبان سبحانه ما بها من النقص من وجوه متعددة :

- (١) إنها لا تخلق شيئاً ، والإله يكون قادراً على الخلق والإيجاد .
- (٢) إنها مخلوقة والمخلوق محتاج ، والإله يجب أن يكون غنياً عن كل ما سواه .

(٣) إنها لا تملك لنفسها ضرا ولا نفعا ، فضلا عن أن تملك ذلك لغيرها ، ومن كان كذلك فلا فائدة في عبادته وإجلاله وتعظيمه .

(٤) إنها لا تقدر على التصرف في شيء ما ، فلا تستطيع إمامة الأحياء ولا إحياء الموتى وبعثهم من قبورهم ، ومن كان كذلك فكيف يسمى إلهًا ، وتعطى له خصائص الآلهة من الخضوع لعظمته والإحبات لجلاله .

وعلى الجملة فعبدة الأصنام قد تركوا عبادة الخالق المالك لكل شيء المتصرف فيه بقدرته وسلطانه وعبدوا ما لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، وليس بعد هذا من حماقة ولا يرضى بمثله من له مُسكة من عقل ، ولا إثارة من علم .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْنَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٥) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٦) .

شرح المفردات

الافتراء: الاختلاق والكذب، من قولهم: افترت الأديم - الجلد - إذا قطعته للإفساد، جاءوا: أي أتوا، والظلم: وضع الشيء في غير موضعه، إذ هم قد نسبوا القبيح إلى من كان مبرأ منه، والزور: الكذب، والأساطير: واحدها أسطار أو أسطورة كأحدوثه، وهو ما سطره المتقدمون، اكتتبا: أي أمر بكتابتها، تملى عليه: أي تلقى عليه بعد اكتتابها ليحفظها، بكرة وأصيلا: أي صباحا ومساء، والمراد دائما . . .

المعنى الجملى

بعد أن تكلم أولاً فى التوحيد ثم فى الرد على عبدة الأوثان - أردف ذلك بالرد على الطاعنين فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد قسموا مطاعنهم قسمين : مطاعن فى القرآن ، ومطاعن فىمن نزل عليه القرآن .

روى أن هذه الآيات نزلت فى النضر بن الحرث إذ هو الذى قال هذه المقالة ، وعنى بالقوم الآخرين عداسا مولى حويطب بن عبد العزى ، ويسارا مولى العلاء بن الحضرمى ، وأبافكيمة الرومى ، وكانوا من أهل الكتاب يقرءون التوراة ويحدثون أحاديث منها ، فأسلموا ، وكان النبى يتعهدهم ويختلف إليهم ، فمن ثم قال النضر ما قال .

الإيضاح

(وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون) أى وقال الكافرون : إن هذا القرآن ليس من عند الله بل اختلقه محمد ، وأعانه على ذلك جماعة من أهل الكتاب ممن أسلموا وكان يتعهدهم ويختلف إليهم : «تقدم ذكر أسمائهم» فيلقون إليه أخبار الأمم الغابرة ، وهو يصوغها بلغته وأسلوبه الخاص .

فرد الله عليهم مقالهم فقال :

(فقد جاءوا ظلما وزورا) أى فقد وضعوا الأشياء فى غير مواضعها وكذبوا على ربهم ، إذ جعلوا القرآن الذى لا يأتىه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - إفكا مفترى من قبل البشر ، وكيف يتقولون ذلك على الرسول وقد تحداهم أن يأتوا بمثله ، وهم ذور اللسن . والفصاحة والغاية فى البلاغة ، فعجزوا أن يأتوا بمثله ، ولو كان ذلك فى مكنتهم ما ادخروا وسعا فى معارضته ، وقد ركبوا الصعب والدلول ليدحضوا حجته ويبطلوا دعوته ، فما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، ولو كان محمد صلى الله عليه وسلم قد استعان فى ذلك بغيره لأمكنهم أيضا أن يستعينواهم بغيرهم ، فما مثله فى اللغة إلا مثلهم .

فلما لم يفعلوا علم أنه قد بلغ الغاية التى لاتجارى وانتهى إلى حد الإعجاز - إلى أنه اشتمل على الحكم والأحكام التى فيها سعادة البشر فى معاشهم ومعادهم ، كما اشتمل على أخبار من أمور الغيب التى لاتصل إليها مدارك البشر ولا عقولهم .
وبعد أن حكى عنهم قولهم فى الافتراء بإعانة قوم آخرين عليه - حكى عنهم طريق تلك الإعانة .

(وقالوا أساطير الأولين اكتبها فهى تملى عليه بكثرة وأصيلا) أى وقال المشركون الذين قالوا إن هذا إلا إفك مفترى : ما هذا إلا أحاديث الأولين الذين كانوا يسطرونها فى كتبهم من نحو أحاديث رستم واسفنديار - اكتبها من اليهود فهى تستنسخ منهم وتقرأ عليه ليحفظها غدوة وعشيا : أى قبل انتشار الناس وحين يأتون إلى مساكنهم ، وقد عموا بذلك أنها تملى عليه خفية لئلا يقف الناس على حقيقة الحال ، وهذه جرأة عظيمة منهم ، قاتلهم الله أنى يؤفكون ، وقد يكون مرادهم أنها تملى عليه دائما .

ثم أمره الله تعالى بإجابتهم عما قالوا بقوله :

(قل أنزله الذى يعلم السرى فى السموات والأرض) أى قل لهم رداً وتحقيقاً للحق : ليس ذلك كما تزعمون ، بل هو أمر سماوى أنزله الله الذى لا يعزب عن علمه شئ وأودع فيه فنون الحكم والأسرار على وجه بديع لاتحوم حوله الأفكار ، ومن ثم أعجزكم بفصاحته وبلاغته ، كما أخبركم فيه بمفاتيح مستقبله وأمور مكنونه لا يوقف عليها إلا بتوفيق العالم الخبير .

وقد وصف سبحانه نفسه بإحاطة علمه بجميع المعلومات الخفية ، فالجلية المعلومة

من باب أولى ، إيدانا بانطواء ما أنزله على أسرار مطوية عن عقول البشر .

(إنه كان غفورا رحيمًا) أى إنكم استوجبتم العذاب بكم كابدتم لرسوله ، ليكنه

لم يجعله لكم رحمة بكم ، رجاء توبتكم وغفران ذنوبكم ، ولولا ذلك لضرب عليكم

العذاب صبًا .

وفي هذا إيحاء إلى أن هذه الذنوب مع بلوغها الغاية في العظم - مغفورة إن تابوا وأن رحمته واصله إليهم بعدها ، فلا يبأسوا منها بما فرط منهم مع إصرارهم على ما هم عليه من معاداة الرسول ومخاصمته .

وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ، لَوْلَا
 أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُنَزَّلُ إِلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ تَكُونُ
 لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ، وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (٨)
 أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٩) تَبَارَكَ
 الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
 وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا (١٠) بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ
 بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١) إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَفِيضًا
 وَزَفِيرًا (١٢) وَإِذَا أَلْقَاوْا مِنْهَا مَكَانًا ضِيقًا مُقْرَبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا
 (١٣) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (١٤) قُلْ أُولَئِكَ
 خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (١٥) لَهُمْ
 فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا (١٦)

شرح المفردات

مسحورا : أى سحر فاختل عقله ، الأمثال : أى الأفلاكيل العجيبة الجارية
 لغزابتها مجرى الأمثال ، فضلوا : أى فبقوا متحيرين فى ضلالهم ، أعتدنا : أى هيأنا
 والسعير : النار الشديدة الاشتعال ، رأتهم : أى إذا كانت منهم برأى الناظر فى البعد ،
 من قولهم : دور تقرأى أى تتناظر ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « إن المؤمن والكافر

لاتترأى نارها» أى لاتتقاربان بحيث تكون إحداها برأى من الأخرى ، إذ يجب على المؤمن مجانبة الكافر والمشرك في أمور الدين ، والتغليظ : إظهار الغيظ ، والمراد صوت التغليظ ، والزفير : إخراج النفس بعد مده ، مقرنين : أى قرنت أيديهم إلى أعناقهم في السلاسل ، والثبور : الهلاك ، وجنة الخلد : هى التى لاينقطع نعيمها ، مسئولاً : أى جديراً أن يسأل ويطلب لكونه مما يتنافس فيه المتنافسون :

المعنى الجملى

بعد أن حكى سبحانه شبيبتهم فيما يتعلق بالمتزل وهو القرآن - ساق شبيبتهم في المتزل عليه ، وهو الرسول على الوجه الذى ذكره ، ثم فند تلك الشبه وبين سخفها وأنها لاتصلح مطعناً في النبى ، ثم حكى عنهم نوعاً ثالثاً من أباطيلهم وهو تكذيبهم بيوم القيامة ، ثم وصف ما أعد للكافرين فيه مما يشيب من هوله الولدان من نار تلظى يسمعون لها تعيظاً وزفيراً ، ووضعهم فيها مقرنين في الأصفاد ، وندائهم إذ ذلك بقولهم يا ثوراه ، ثم أتبع ذلك بما يؤكد حسرتهم وندامتهم بوصف ما يلقاه المتقون في جنات النعيم : مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وأن هذا ما وعدهم به ربهم الذى لاخلف لوعده .

الإيضاح

حكى الله هنا أن المشركين ذكروا خمس صفات للنبى تمنع النبوة في زعمهم :

(١) (وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ؟) أى أى شىء ميزه عنا وجعله يدعى النبوة مع أنه يأكل كما نأكل ويشرب كما نشرب .

(٢) (ويمشى في الأسواق) لابتغاء الرزق كما تفعل ، فهو مثلنا فمن أين له الفضل علينا ؟ وهم يقصدون بذلك استبعاد الرسالة عنه ، لمنافاتها للأكل والشرب وطلب المعاش ، وكأنهم قالوا : إن صح ما يدعيه ، فما باله لم يخالف حاله حالنا ولم يؤت ميزة دوننا .

وما هذا منهم إلا لضعف عقولهم وقصور إدراكهم ، فإن الرسل لم يمتازوا بأمر جسمية ، بل بصفات روحية ، وفضائل نفسية فطروهم الله عليها توجب صفاء عقولهم وظهارة نفوسهم ، يرشد إلى ذلك قوله تعالى : « قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ » .

(٣) (لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا) أي فهلا أنزل إليه ملك من عند الله يكون شاهدا على صدق ما يدعيه ، ويرد على من يخالفه ، وشبيه بهذا ما قال فرعون عن موسى : « فَلَوْلَا أَلْتَقَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ » .

(٤) (أو يلقى إليه كنز) أي وهلا أنزل عليه كنز من السماء ينفق منه حتى لا يحتاج إلى المشى في الأسواق لطلب المعاش .
(٥) (أو يكون له جنة يأكل منها) أي وهلا كان له بستان يعيش من غلته كما يعيش الميسير من الناس .

قال صاحب الكشف : إنهم طلبوا أن يكون الرسول ملكا ، ثم نزلوا عن ملكيته إلى صحبة ملك يعينه ، ثم نزلوا عن ذلك إلى كونه مرفودا بكنز ، ثم نزلوا فاقنعوا بأن يكون له بستان يأكل ويرتزق منه اه .

وعن ابن عباس قال : إن عتبة بن ربيعة وأبا سفيان بن حرب والنضر بن الحرث وأبا البحترى والأسود بن عبد المطلب وزمعة بن الأسود والوليد بن المغيرة وأبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية وأمية بن خلف والعاص بن وائل ومنبه بن الحجاج اجتمعوا ، فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد وكلوه وخاصموه حتى تعذروا منه ، فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا ليكلموك ، قال فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقالوا يا محمد : إنا بعثنا إليك لتعذر منك ، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب مالا جمعنا لك من أموالنا ، وإن كنت تطلب به الشرف فنحن

انسودك ، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بي مما تقولون ، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ، ولكن بعثني إليكم رسولا ، وأنزل علي كتابا ، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علي أصبر حتى يحكم الله بيني وبينكم ، قالوا يا محمد : فإن كنت غير قابل منا شيئا مما عرضناه عليك فسل لربك وسل لنفسك أن يبعث معك ملكا يصدقك فيما تقول ويراجعنا عنك ، وسله أن يجعل لك جنانا وقصورا من ذهب وفضة ويغنيك عما تراك تبغى ، فإنك تقوم بالأسواق وتبتسّم المعاش كما نلتّمسه ، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنا بفاعل ، ما أنا بالذي يسأل ربه هذا ، وما بعثت إليكم بهذا ، ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا ، فأنزل الله في ذلك هذه الآية .

أخرجه ابن اسحاق وابن جرير وابن المنذر .

وبعد أن حكى عنهم أولا أنهم يثبتون له كمال العقل ولكنهم ينتقصونه بصفات في شئون الدنيا - حكى عنهم ثانيا أنهم نفوا عنه العقل بتاتا وادّعوا أنه مختل الشعور والإدراك وإلى هذا أشار بقوله :

(وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا) أى وقال الكافرون الظالمون لأنفسهم بنسبتهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ما هو منه براء ، ويدل العقل والمشاهدة على نفيه عنه : ما تتبعون إلا رجلا سحر فاختل عقله فهو لا يعي ما يقول ، ومثله لا يطاع له رأى ، وهذا منهم ترقى في انتقاصه ، وأنه لا يصلح للنبوة بحال .

ولما ذكر ضلالانهم التفت إلى رسوله صلى الله عليه وسلم مسليا له بقوله :
(انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) أى انظر واعجب لهم : كيف جروا على التفوّه بتلك الأقايل العجيبة ، فاخترعوا لك صفات وأحوالا بعيدة كل البعد عن صفاتك التي أنت عليها ، فضلوا بذلك عن طريق الهدى

وصاروا حائرين لا يدرون ماذا يقولون ولا ما يقدهون به في نبوتك إلا مثل ذلك الشخف والهذر .

والخلاصة — إن ما أتوا به لا يصلح أن يكون قادحا في نبوتك ولا مطعنا فيك فإن كان لهم مطعن في المعجزات التي أتيت بها فليفعلوا ، ولكن أنى لهم ذلك ؟ ثم رد على ما اقترحوه من الجنة والكنز بقوله :

(تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا) أي أكثر خيرا بك ، فإن شاء وهب لك في الدنيا خيرا مما اقترحوا فإن أراد جعل لك في الدنيا مثل ما وعدك به في الآخرة ، فأعطاك جنات تجري من تحتها الأنهار ، وآتاك القصور الشامخة والصياضي التي لا يصل إلى مثلها أكثرهم مالا وأعزهم نفرا ، ولكن الله لم يشأ ذلك لأنه أراد أن يكون عطاؤه لك في الدار الباقية الدائمة ، لافي الدار الزائلة القانية ، وإنما كانت خيرا مما ذكروا ؛ لكثرتها وجريان الأنهار من تحت أشجارها وبناء المساكن الرفيعة فيها ، والعرب تسمى كل بيت مشيد قصرا .

ثم انتقل من كلامهم في البعث وأمر الساعة مينا بذلك السبب في عدم تصديقهم برسوله فقال :

(بل كذبوا بالساعة) أي ما أنكروا هؤلاء المشركون ما جئتهم به من الحق ، وتقولوا عليك ما تقولوا ، إلا من قبل أنهم لا يوقنون بالبعث ، ولا يصدقون بالثواب والعقاب .

والخلاصة — إنهم أتوا بأعجب من هذا كله وهو تكذيبهم بالساعة ، ومن ذلك لا ينتفعون بالدلائل ولا يتأملون فيها .

ثم توعدهم وبين عاقبة أمرهم وما كتب لمثلهم من الخيبة والخذلان فقال : (وأعدنا لمن كذب بالساعة سعيرا . إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا . وإذا أقوامهم مكا ناضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا . لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا

وادعوا ثبورا كثيرا) أى إنا أعددنا لمن كذب بالبعث والحشر والنشر والحساب والجزاء ، نارا تسعر وتتقد عليهم إذا كانت منهم بمرأى الناظر سمعوا لها صوتا يشبه صوت المتعطيظ ؛ لشدة توقدها ، وصوت الزفير الذى يخرج من فم الحزين المتهاك حسرة وألما .

أخرج ابن المنذر وابن جرير عن عبيد بن عمير أنه قال : « إن جهنم لتزفر زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا ترعد فرائضه ، حتى إن إبراهيم ليبحثو على ركبتيه فيقول : رب لا أسألك اليوم إلا نفسى » .

وإذا ألقوا منها فى مكان ضيق قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم فى الأغلال والسلاسل ، استغاثوا وقالوا يا ثبوره : أى يا هلاكنا احضر فهذا وقتك ، فيقال لهم : لاتنادوا هلاكا واحدا وادعوا هلاكا كثيرا : أى إنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم منه واحدا ، إنما ثبوركم منه كثير ، لأن العذاب ألوان وأنواع ، ولكل منها ثبور شدته وفضاعته .

وخاصة ذلك — إن الله قد أعد لمن كذب بالقيامة نارا مستعرة إذا كانت منهم بمرأى الناظر فى البعد سمعوا صوت غليانها ، وإذا طرحوا منها فى مكان ضيق وهم مقرنون فى السلاسل والأغلال تمنوا الهلاك ليساموا مما هو أشد منه كما قيل : (أشد من الموت ما يتنى معه الموت) فيقال لهم حينئذ : لاتدعوا هلاكا واحدا فإنه لا يخلصكم بل اطلبوا هلاكا كثيرا لتخلصوا به — والمقصود من ذلك تبييضهم مما علقوا به أطعاهم من الهلاك ، وتنبية إلى أن عذابهم أبدى لا خلاص لهم منه .

وبعد أن وصف عقاب المكذبين بالساعة ، أردفه بما يؤكد الحسرة والندامة فقال :

(قل أذلك خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون ؟) أى قل لهؤلاء المكذبين تهكما بهم وتحسيرا لهم على ما فاتهم : أهذه النار التى وصفت لكم خير أم جنة الخلد التى يدوم نعيمها ولا يبديد ، وقد وعدتها من اتقاه فى الدنيا بطاعته فيما به أمره ونهاه .

ثم حقق أمرها تأكيذا للبشارة بقوله :

(كانت لهم جزاء ومصيرا) أى كانت هذه الجنة لهم جزاء أعمالهم فى الدنيا بطاعتهم ، وثوابا لهم على تقواهم ، ومرجعا لهم ينتقلون إليه فى الآخرة .

ثم وصف مقدار تنعمهم فيها بقوله :

(لهم فيها ما يشاءون خالدين) أى لهم فى جنة الخلد ما يشتهون من ما كل ومشرب وملابس ومسكن ومراكب ونحو ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وهم فيها خالدون أبدا بلا انقطاع ولا زوال .

(كان على ربك وعدا مسئولا) أى وهذا من وعد الله الذى تفضل به عليهم وأحسن به إليهم حين سألوهم بقولهم : « رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ » .

وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فِيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هُوَ لَا أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ؟ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ، وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَإِيبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا اللَّهَ كَرًّا وَكَانُوا قَوْمًا بُرًّا (١٨) فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَظِيمُونَ صَرَفًا وَلَا نَصْرًا ، وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُدِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (١٩)

شرح المفردات

ضل السبيل : فقدته وخرج عنه ، والذكر : ما ذكر به الناس على السنة أنبيائهم ،
 بورا : أى هالكين وهو لفظ يستوى فيه الواحد والجمع ، صرفا : أى دفعا للعذاب ،
 يظلم : أى يكفر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما أعد لأولئك المكذبين بيوم القيامة من الشدائد والأهوال فى النار ودعائهم على أنفسهم بالويل والثبور - أردفه بذكر أحوالهم مع معبوداتهم من دون الله وتوبيخهم على عبادة من عبدوا من الملائكة وغيرهم ، ثم ذكر أن معبوداتهم تكذبهم فيما نسبوه إليهم ، ثم بين أن العابدين لا يستطيعون دفع العذاب عن أنفسهم ولا يجحدون من يستنصرون به .

الإيضاح

(ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتهم هؤلاء أم هم ضلوا السبيل ؟) أى واذكر لقومك تحويفا وتحذيرا يوم يحشر عابدوا الأصنام والملائكة وعيسى وعزير وأضرابهم من العقلاء الذين عبدوا من دون الله ، ثم يقال لأولئك المعبودين : أأنتم دعوتهم عبادى إلى الفنى والضلال حتى دسوا أنفسهم وهلكوا ، أم هم الذين ضلوا سبيل الرشدهم والحق ، وسلكوا سبيل الهلاك بإعراضهم عن اتباع الرسول ؟ فأجاب المعبودون :

(قالوا سبحانه ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا) أى قال المعبودون على طريق التعجب مما قيل لهم لأنهم ملائكة أو أنبياء معصومون ، فما أبعدهم عن الإضلال : تنزهت ربنا مما نسب إليك هؤلاء المشركون ، ما كان يليق بنا ونحن لا نتخذ من دونك أولياء أن ندعو غيرنا إلى ذلك ، ولكنك ربنا أكثرت عليهم وعلى آباءهم نعمك ليعرفوا حقها ويشكروك فاستغرقوا فى الشهوات وانهمكوا فى الذات وغفلوا عن ذكرك والإيمان بك ، فكانوا من الهالكين ، حينئذ يقال لأولئك العابدين .

(فقد كذبوك بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا) أى فقد كذبكم أيها الكافرون من زعمتم أنهم أضلوكم ودعوكم إلى عبادتهم - فيما تقولون ،

فما تستطيعون صرف العذاب عن أنفسكم ولا تجدون من ينصركم ويدفع عقاب الله عنكم .

والخلاصة — إنكم لا تستطيعون النجاة لا بالهرب ولا بالانتصار لأنفسكم ، فأنتم معذبون لا محالة .

ثم عم سبحانه الحكيم وخطاب جميع المكلفين فقال :

(ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا) أى ومن يكفر منكم أيها المكلفون فيعبد مع الله لها غيره كهؤلاء الذين كذبوا بيوم القيامة — نذقه فى الآخرة عذابا كبيرا لا يقدر قدره ، ولا تصل العقول إلى معرفة كنهه .

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ
وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ، أَتَصْبِرُونَ ؟
وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (٢٠) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر مقالاتهم التى طعنوا فيها على رسوله بقولهم : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق — زاعمين أن هذا مما لا ينبغى للرسول أن يفعل مثله — أردف ذلك بالاحتجاج عليهم بأن محمدا ليس بدعا فى الرسل ، فكلمهم كانوا يفعلون فعله .

وفى هذا تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وتصبير له على أذاهم .

ثم بين أن سنته أن يتلى بعض الناس ببعض ، فيبتلى الفقراء بالأغنياء والمرسلين بالمرسل إليهم فيناصبهم العداة ويؤذوهم ، ليعلم أيهم يصبر وأيهم يجزع ؟ وهو البصير بحال الصابرين وحال الجازعين .

الإيضاح

(وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق)
 أي إن جميع من سبقك من الرسل كانوا يأكلون الطعام للتغذي به ، ويمشون
 في الأسواق للتسكيب والتجارة ولم يقل أحد إن ذلك نقص لهم بغض من كرامتهم
 ويزرى بهم ، ولم يكن لهم امتياز عن سواهم في هذا ، وإنما امتازوا بصفاتهم الفاضلة
 وخصائصهم السامية وآدابهم العالية ، وبما ظهر على أيديهم من خوارق العادات ،
 وباهر المعجزات ، مما يستدل به كل ذى لب سليم وبصيرة نافذة على صدق ما جاءوا
 به من عند ربهم - فمحمد صلى الله عليه وسلم ليس بدعا من الرسل إذ يأكل
 ويمشى في الأسواق ، وليس هذا بدم له ولا مطعن في صدق رسالته كما تزعمون .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ
 مِنْ أَهْلِ الْقُرَى » وقوله : « وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَآيَأَ كُلُّونَ الطَّعَامَ » .
 ثم سلى رسوله عن قولهم « أَوْ يُبَلِّغُنَا إِلَيْهِ كَنْزًا أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ
 يَأْكُلُ مِنْهَا » بقوله :

(وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون ؟) أي وامتنحنا أيها الناس ببعضكم
 ببعض ، فجعلنا هذا نبيا وخصصناه بالرسالة ، وهذا مديكا وخصصناه بالدنيا ، وهذا
 فقيرا وحرمانه من لذات الحياة ونعيمها ، لنختبر الفقير بصبره على ما حرم مما أعطيه
 الغنى ، والملك بصبره على ما أوتيته الرسول من الكرامة ، وكيف يكون رضى كل
 منهم بما أعطى وقسم له ، وطاعته ربه على حرمانه مما أعطى سواه - ومن جرّاء
 هذا لم أعط محمدا الدنيا وجملمته يمشى في الأسواق يطلب المعاش ، لأبتليكم وأختبر
 طاعتكم وإجابتكم إياه إلى ما دعاكم إليه وهو لم يرج منكم عرضا من أعراض الدنيا
 يرجو أن يناله ، ولو أعطيتها إياه لسارع كثير منكم إلى اتباعه ، طمعا في أن ينال شيئا
 من دنياه .

والخلاصة — نوسنت أن أجعل الدنيا مع رسلي حتى لا يتخالفوا ففعلت ، لكفى أردت أن أبتلى العباد بهم وأبتليهم بالعباد فينالهم منهم الأذى ويناصبهم العداة ، فاصبروا على البلاء فقد علمتم ما وعد الله به الصابرين .

(وكان ربك بصيرا) أى وربك أيها الرسول بصير بمن يحزع وبمن يصبر على ما امتحن به من المحن ، ويجازى كلا بما يستحق من عقاب أو ثواب ، روى مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « انظروا إلى أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هم فوقكم ، فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم » .

اللهم اجعلنا من الصابرين على أذى السفهاء ، واجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وارزقنا من لدنك قناعة وغي ثريا بهما عما فى أيدي الناس وثبت أقدامنا فى فهم كتابك ، وبلغنا ما نرجوه من إرشاد عبادك بما تقدم لهم من نوريهم دون به إلى صراطك المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، وصل ربنا على محمد وآله .

تم تفسير هذا الجزء بحلوان من أرباض القاهرة قاعدة الديار المصرية ، لثلاث خلون من صفر سنة أربع وستين وثلاثمائة بعد الألف من الهجرة النبوية ، والله الحمد أولا وآخرا .

فهرست

أهم المباحث العامة التى فى هذا الجزء

المبحث	الصفحة
المؤمن المفلح هو الجامع لخصال سبع من خصال الخير	٥
أطوار خلق الإنسان .	٧
قال عمر : وافقت ربى فى أربع الخ .	٩
ما يحتاج إليه الإنسان فى معيشته .	١١
ما فى السماء من منافع للإنسان .	١٢
النعم التى سخرها الله لنا من خلق الحيوان .	١٤
قصص نوح عليه السلام مع قومه وما فيه من عبرة .	١٥
قصص هود عليه السلام مع قومه .	٢٠
قصص صالح ولوط وشعيب وغيرهم عليهم السلام .	٢٣
قصص موسى وهرون عليهما السلام .	٢٤
قصص عيسى عليه السلام .	٢٦
الرسول جميعا أمروا أن يأكلوا من الحلال الطيب .	٢٨
فى الحديث : إن الله تعالى لا يقبل إلا طيبا .	٢٩
دين الأنبياء دين واحد وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده، واختلاف الشرائع لا يسمى اختلافا فى الدين .	٣٠
كثرة المال والبنين ليست كرامة من الله لعباده .	٣١
صفات المسارعين فى الخيرات .	٣٢

الصفحة	المبحث
٣٥	لا يكاف العبد إلا بما في وسعه وهو في كتاب محفوظ عليه .
٣٨	المشركون في غفلة عما بين في القرآن .
٣٩	لا ينفع المشركين يوم القيامة الصريح والوعيل .
٤٠	الأسباب التي ركن إليها المشركون في إنكارهم لهذا الدين .
٤١	لوجاء التشريع على حسب الهوى لاختل نظام العالم .
٤٢	ما أنت أيها الرسول بطالب أجرا على هدايتهم .
٤٥	ما امتن به سبحانه على عباده .
٤٦	المشركون أنكروا البعث تقليدا لمن سبقهم .
٤٨	إثبات البعث ببرهانات ثلاثة .
٥٠	كذب المشركون في ادعائهم اتخاذ الله الولد واتخاذ الشريك .
٥١	ما وصف به سبحانه نفسه من صفات النكاح .
٥٢	أمر الله رسوله أن يدعوه ألا يجعاه قرينا للمشركين في العذاب .
٥٣	أمر الرسول بالدفع بالحسنى .
٥٤	كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم صحبه كلمات يقولونها عند النوم .
٥٥	طلب المشركين الرجوع إلى الدنيا عند معاينة العذاب .
٥٧	أحوال يوم القيامة .
٥٨	أحوال الأشقياء يومئذ .
٦٢	يسأل الجرمون توبيخا لهم عن مدة لبثهم في الأرض .
٦٣	تنزيه الله نفسه عما يصفه به المشركون .
٦٨	عقوبة الزنا الدنيوية لغير المحصن .

الصفحة	المبحث
٦٨	طريق إثبات الزنا .
٦٩	العقوبة الأخروية للزنا .
٧٠	الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة .
٧١	حكم قذف غير الزوجة من النساء .
٧٣	قذف الرجل زوجته .
٧٤	ما ورد في ذلك من الآثار .
٧٧	حديث الإفك على أم المؤمنين عائشة رضی الله عنها .
٧٩	من هلك بسببه من المؤمنين .
٨٣	وعيد من أشاع هذا الحديث .
٨٤	عتاب الله للمؤمنين على ما قر في نفوسهم من إرجاف المرجفين .
٨٥	ارتكاب المرجفين ثلاثة آثام .
٨٦	تحذير المؤمنين أن يعودوا لمثل هذا .
٨٧	جزاء من يجب إشاعة الفاحشة في المؤمنين .
٩٠	من اتهم محصنة غافلة من الخنا والفجور فهو مطرود من رحمة الله .
٩٠	شهادة الأيدي والأرجل والأسنة .
٩٢	الأدلة على براءة عائشة .
٩٣	الإنسان لا تلاؤم بين أجزائه إلا بصفات متناسبة .
٩٤	دخول المرء بيت غيره لا بد فيه من الإذن .
٩٥	إن قيل للدخول أرجح وجب أن يرجع .
٩٦	حكم دخول البيوت غير المسكونة سكنى خاصة .

الصفحة	المبحث
٩٧	الأمر بغض البصر وحفظ الفروج سدًّا لباب الشر ومنعًا لارتكاب الآثام .
٩٩	الأمر بضرب الخمر على الجيوب .
١٠٠	النهي عن إبداء الزينة إلا للبعولة أو آباء البعولة الخ .
١٠١	الأمر بانكاح الأيامي من الرجال والنساء حفظًا للأنسب وبقاءً للنوع .
١٠٤	ثلاثة حق على الله عونهم .
١٠٦	مثل نور الله في السموات والأرض .
١٠٨	فوائد ضرب الأمثال في القرآن .
١١٠	المساجد بيوت الله ، وحق على الله أن يكرم من زاره فيها .
١١١	أعددت لعبادي الصالحين - الحديث .
١١٢	مثل أعمال الكافرين في الآخرة .
١١٥	ذكر دلائل التوحيد .
١١٩	المنافقون يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم .
١٢٢	المنافقون يعرضون عن التحاكم إلى الرسول .
١٢٣	طاعة الله ورسوله توجب الفوز والنجاة .
١٢٤	نهى المنافقين عن الحلف .
١٢٦	وعد المؤمنين بالاستخلاف في الأرض .
١٢٧	الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة .
١٢٩	الأمر بالاستئذان في العورات الثلاث .
١٣٠	سبب نزول آية الاستئذان .
١٣٣	لا حرج على النساء اللاتي لا يزوجون نكاحًا في ترك الزينة .

- ١٣٤ الأمر بالاسلام عند دخول البيوت .
- ١٣٥ لاجرج على الأعمى ولا على المريض ولا على الأعرج في ترك الجهاد .
- ١٣٨ الأمر بالاستئذان حين الانصراف عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم .
- ١٤١ النهي عن الانصراف خفية من مجلسه .
- ١٤٢ علم الله محيط بكل شيء .
- ١٤٧ ما وصف به سبحانه نفسه من صفات الكبرياء .
- ١٤٨ ما في الأصنام من صفات النقص .
- ١٥٠ الرد على الطاعنين في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .
- ١٥١ قال المشركون إن محمدا اكتب أساطير الأولين .
- ١٥٣ الصفات التي تمنع نبوة النبي صلى الله عليه وسلم في زعمهم .
- ١٥٥ ادعى المشركون أن محمدا رجل مسحور .
- ١٥٦ تكذيب المشركين بيوم القيامة .
- ١٦٠ الرسل جميعا كانوا يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق .
- ١٦٢ لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلي لفعلت .